

مَنْ نَوَّاحِي الإعجاز القرآني

السور القرآنية ذات الحروف

(ن، ص، ق، يس)

محمد عادل القلقيلي



دار عمارة

من تَواجِعِ الإعجازِ القرآنيِّ

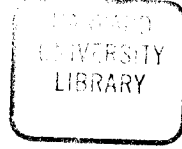
السور القرآنية ذات الحروف

(ن، ص، ق، يس)

مُحْفَوظٌ جَمِيعُ حَقُوقِ

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م



دار عمارة للنشر والتوزيع

عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحنجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن

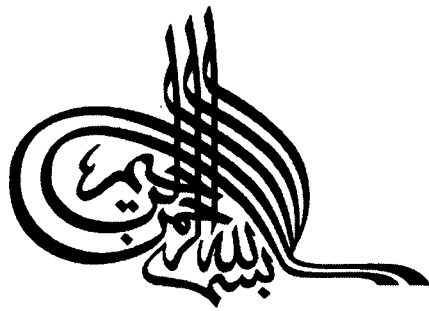
مِن نَوَاحِي الإعْجَازِ الْقُرْآنِيَّةِ

السور القرآنية ذات الحروف

(ن ، ص ، ق ، يس)

محمد عادل القلقيلي

دارعمار



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد رسول الله ونبه الكريم .

وبعد فإني دأبتُ في كتبي السابقة على إظهار أن لكل سورة قرآنية موضوعاً واحداً تدور حوله ، وتتنظم به انتظاماً ، على الرغم مما يبدو من اختلاف سطحي ، لمن يقرأ السورة قراءة سريعة دون إمعان أو تأمل . وقد قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ؟ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ، وهي دعوة لنا لتدبر القرآن محاولين إظهار تألف معانيه وبراءتها من الاختلاف والتباين .

وفي كتابي هذا ، أعرض إن شاء الله ، دراسات لسور أخرى من القرآن الكريم ، محاولاً اكتشاف الموضوع الوحيد الذي تنتظم حوله كل سورة .

غير أن هذه الدراسات تمتاز عن الدراسات السابقة بأنها تتناول عدداً من السور التي تتصدرها حروف مقطعة ، كمثل سورة القلم التي

يتصدرها حرف النون (ن) ، وسورة (يس) التي يتصدرها حرفا الياء والسين .

ولست أزعـم أنني اهتديت إلى معاني هذه الحروف (ن ، ق ، ص ، يس) التي تتصدّر هذه السور الكريمة ، غير أنني استعنت بنفس هذه الحروف على اكتشاف الموضوع الوحيد الذي تدور حوله السور ، فكانت خير مرشد لي إلى ذلك .

وأما الأسلوب الذي اتبعته في سبيل ذلك ، فهو أنني نظرت في كلمات السورة التي تحوي الحرف الذي يتصدرها ، وانتقيت أبرزها ، وأعملت الفكر فيها وفي معاني السورة ، حتى اهتديت بفضل الله إلى موضوع السورة الوحيد .

ولأضربُ مثلاً على ذلك بسورة (القلم) ، التي يتصدّرُها حرف النون . فقد وجدت أن أهم كلماتها التي تحوي حرف النون هما الكلمتان (نعمة ، مناع) . فقادني ذلك بالإضافة إلى تأملي لمعاني السورة إلى الفكرة التالية : (من منع نعمة الله عن غيره ، منعها الله عنه) وهي الموضوع الأساس الوحيد الذي تدور حوله أقسام السورة الثلاثة ، كما سيجلده القارئ الكريم - إن شاء الله - مفصلاً في الكتاب .

وقد شجعني على إيجاد موضوع وحيد لكل سورة الحديثُ القدسيُّ الصحيح ، الذي لفت الله فيه الأنظار إلى سورة الفاتحة فقال : « قَسَمْتُ الصلاةَ - أي سورة الفاتحة - بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبي ما سأل :

فإذا قال العبد : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، قال الله : حمدني عبدي .
 وإذا قال : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ، قال الله تعالى : أثنى عليَّ عبدي . وإذا
 قال : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ، قال : مجَّدني عبدي . وإذا قال : ﴿ إياك
 نعبدُ وإياك نستعين ﴾ ، قال : هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل .
 فإذا قال : ﴿ اهدنا الصراطَ المستقيمَ صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهم ، غيرِ
 المغضوبِ عليهم ولا الضالِّين ﴾ ، قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل «
 (مشكاة المصابيح - ٨٢٣) .

فقد جعل الله هذه السورة تدور حول موضوع واحد هو : (استعانة
 العبد الفقير بربه الحميد القدير) . كما جعلها من حيث الشكل تتألف
 من قلب و طرفين . فقلبها هو : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾ ، وجعل
 نصف هذا القلب ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لتمجيد الذات الإلهية الكريمة ، وجعل
 نصفه الآخر ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾ لقضاء حاجات العبد .

وجعل طرفها الأول أيضاً لتمجيد الله تعالى ، كما جعل طرفها الثاني
 لقضاء حاجات العبد .

هذا وإن اكتشاف انتظام كل سورة حول موضوع واحد ، وتناسق
 معانيها وترابطها فيما بينها ، ليدلَّ على جانب مهم من جوانب إعجاز
 القرآن الكريم . إذ كيف يستطيع رجل أميٍّ مثل محمد عليه السلام ،
 لم يمارس في حياته الكتابة ولا التأليف قط ، ولم يؤلف أي فرد من أفراد
 أمته العربية الأمية من قبلُ كتاباً يكون قدوة له في التأليف - كيف يستطيع

رجل مثله أن يؤلف كتاباً منظماً ذا أفكار متناسقة منسجمة ، تدور كل سورة من سوره حول موضوع واحد ذي جلال وخطر ، يطرق أهم القضايا النفسية والفلسفية ، وأعمقها أفكاراً .

ولست أول من أدرك هذه الناحية من الإعجاز القرآني . فإنّ الأقدمين عرفوها ، واستخرجوا من سور القرآن المتفرقة التي نزلت على مدى سنين متباعدة - استخرجوا موضوعات متكاملة متناسقة . فإنهم مثلاً استقوا من مختلف سور القرآن الكريم موضوعاً متناسقاً عن (النفس البشرية) ، تبين منه أن الله قد أودع في كل نفس بشرية حوافز تدفعها إلى الشر والفجور ، وحوافز أخرى تدفعها إلى الخير والتقوى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) ، وأن لهذه النفس درجات ثلاثاً . أولاها : النفس الأمارة بالسوء ، التي يسيطر عليها فجورها تمام السيطرة ، ثانيها : النفس اللوامة ، التي تقع في الآثام والأخطاء لكنها تلوم نفسها على آثامها : ﴿ وَلَا أَقْسَمُ بِاللَّوَامَةِ ﴾ . وثالثها : النفس المطمئنة ، وهي النفس التي قد سيطرت تقواها على فجورها سيطرة تامة فهدأت وسكنت بذكر الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ ارجعي إلى ربك راضيةً مرضيةً ﴾ .

ومثال ذلك أيضاً ما بذله فقهاء هذه الأمة رحمهم الله من جهود في استنتاج أحكام الفقه الإسلامي من سور القرآن المختلفة ، فسادوا بناءً

فقهيّاً رائعاً متناسقاً ، يطرق موضوعات منتظمة تنبع من ينبوع فيّاض من الحكمة والمنطق والفكر السليم .

فهذه أمثلة على استخراج موضوع واحد من عدة سور قرآنية متفرقة .

أفلا يمكن أن نكتشف موضوعاً واحداً تدور حوله السورة الواحدة ؟

هذا هو السؤال الذي سأحاول الإجابة عنه - إن شاء الله - في

الصفحات التالية ، مستعيناً بالله تعالى ، فهو وحده المعين الهادي إلى سواء السبيل .

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَمْ نَجْعَلِ الْإِنْسَانَ مِنْ نُوحٍ أُمَّةً مَعْرُوفَةً
أَلَمْ نَجْعَلِ عَيْنَهُ يَبْصُرًا وَنَسِيتُكَ أَكْبَارُ
أَلَمْ نَجْعَلِ لَكَ نُجُودًا كَثِيرًا
وَمَا يَسْطُرُونَ ، مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٌ ، . . . (إلى

آخر السورة) .

سورة القلم . . . وموضوعها الواحد مَنْ مَنَعَ نِعْمَةَ اللَّهِ مُنِعَ مِنْهَا

إن هذه السورة الكريمة من أوائل السُور التي نزلت على رسول الله ﷺ في مكة المكرمة . وتتناول دراستي للسورة البحث عن الموضوع الواحد الذي تدور حوله معانيها جميعاً مما يبيّن تناسق كل سورة من سور القرآن الكريم وانسجام معانيها وتآلفها .

ومن أجل معرفة هذا الموضوع الوحيد خطر لي أن أسترشد بحرف (النون) الذي يتصدّر السورة ، فنظرت في أهم كلمات السورة التي تحتوي حرف النون ، فوجدت أبرزها كلمتين هما (النعمة) و (المنع) . فأما كلمة (النعمة) فقد وردت في الآيتين : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ ﴾ و (ولولا أن تداركه نعمَةً من ربه لُنِيدَ بالعراء وهو مذموم) . وأما (المنع) فقد ورد في الآية : ﴿ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ ﴾ . وعلى ضوء ذلك ، ولدى التفكير في آيات السورة ، وجدت أن الموضوع العام للسورة يدور حول هاتين الكلمتين ، أي ما ينعم الله به من الخير على الخلق ، وما يمنعه عنهم من الخير جزاءً لهم على منعهم لهذا الخير عن غيرهم .

فكأنَّ السورة إيضاح لبعض تجليات اسميه تعالى الكريمين (المنعم)
و(المانع) ، فهو تعالى يُنعم ويمنع ، محققاً بذلك الحكمة والحق
والعدل ، وذلك طبقاً لقوله تعالى : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة
فلا تُمسك لها ، وما يُمسك فلا يُرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾
(فاطر : ٢) .

وللسورة طريقتان في التعبير عن نعمة الله على خلقه . (أولاهما) :
طريقة الإثبات ، وذلك كإثبات نعمة الخلق العظيم لرسول الله ﷺ :
﴿ وإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ . (وثانيتها) : طريقة النفي ، أي منع
الأذى والشر عن العبد ، وذلك كنفي الجنون عن الرسول الوارد في
الآية : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ ، ويؤول ذلك إلى إثبات نعمة
العقل الكامل للرسول .

والله تعالى هو الذي يبدأ الإنعام على عبده ، ابتداءً منه تعالى ، ودون
طلب سابق من العبد ، بل كرمأً منه وفضلاً ورحمة ، فإن إنعام الله على
رسوله بنعمتي العقل والخلق العظيم لم يتم بطلب من الرسول ، وإنما هو
هبة إلهية رحمانية أفاضها الله على رسوله ليرحم بها خلقه : ﴿ وما أرسلناك
إلا رحمةً للعالمين ﴾ .

وقد ورد ذكر هاتين النعمتين على رسول الله رداً على أكاذيب المشركين
الذين اتهموه ﷺ بالجنون وبالكذب على الله في رسالته نافين أنه يتلقى
الوحي من الله .

فأكد الله نعمة العقل على رسوله بنفيه لتهمة الجنون . وإن شواهد الرسول بينهم منذ طفولته حتى كهولته لتؤكد عقله الراجح ، وبخاصة حادثة إنقاذه لقريش من التناحر والصراع في قصة الحجر الأسود الشهيرة قبل البعثة .

وأكد الله نعمة الخلق العظيم على نبيه بعد أن اتهمه المشركون بالكذب على الله ، والكذب من ألوان الخيانة ، التي هي منافية للخلق الكريم . وشواهد حياته ﷺ تؤكد أمانته وصدقه ، فلقد أطلقوا عليه لقب (الأمين) بسبب ذلك ، وكانوا يودعون أموالهم عنده حتى آخر لحظة من وجوده بينهم في مكة لثقتهم الكاملة في أمانته وعظيم خلقه . يدل على ذلك ما ورد في السيرة الشريفة من أنه ﷺ أمر علياً رضي الله عنه ، قبيل هجرته ﷺ إلى المدينة ، أن يؤدي أمانات معينة كانت عنده إلى أصحابها من المشركين بعد أن تتم هجرته ﷺ إلى المدينة . . .

النعمة والمنع في السورة :

والآن ، بعد أن أوضحت فكرة (النعمة والمنع) ، أشرع في إيضاح سريان هذين المعنيين في سورة القلم بترابط متين وتناسق وانسجام ، وأستعين بالله على ذلك ، فلا قوة إلا به .

يمكننا تقسيم السورة من حيث موضوعاتها الفرعية إلى ثلاثة أقسام ،

هي :

١ - نعمة الله على قريش بإنزال القرآن وإرسال الرسول ﷺ ،
ومحاولتهم (منع) الرسول من نشر دعوته التي هي أعظم (نعمة) .

٢ - قصة أصحاب الجنة (البستان) ، الذين أرادوا منع المساكين من
أخذ حَقِّهم من ثمرات بستانهم ، فدمَّر الله بستانهم ، و (منعهم) من
جني جميع ثماره .

٣ - قصة يونس عليه السلام ، صاحب الحوت ، الذي (امتنع) عن
مواصلة نشر دعوة الإسلام بين قومه ، فحرمهم من هذه النعمة ،
فعاقبه الله بمنعه من نعمة الحياة الحرة المطمئنة ، وحبسه في ظلمات بطن
الحوت .

١ - القرآن والرسول والقلم نِعَم من الله :

إن تعليم الله الناس الكتابة بالقلم ﴿ وما يسطرون ﴾ هو من نعم الله
الكبيرة . وقد أشار الله أيضاً إلى ذلك في سورة العلق (وهي أولى سور
القرآن نزولاً) حيث قال : ﴿ اقرأ وربك الأكرم . الذي عَلَّمَ بالقلم .
عَلَّمَ الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

وهذه الآية تُشيد بالقلم ، وتعدّ تعليمه للناس نعمة كريمة من الله
(الأكرم) ، ذلك لأن الإنسان ، مهما كانت قدراته العقلية ، فهو مُعَرَّض
إلى نسيان معلوماته بمرور الزمن ، ولكن تسطير هذه المعلومات بالقلم في
الكتب (يمنع) من نسيان هذه العلوم وضياعها ، فالكتابة (نعمة) لأنها

(منع) لضياح العلم الدنيوي والتشريع الإلهي . وهناك إشارة واضحة إلى ذلك في آخر السورة إذ تقول : ﴿ وما هو إلا ذكرٌ للعالمين ﴾ ، و (الذكر) عكس (النسيان) ، [وذلك كما قال تعالى : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾] . فالقرآن الكريم ذكر للعالمين ، أي كتاب مسطور ، محفوظ من الضياح ، ممنوع من النسيان بسبب تسجيله بالقلم ، فهو يذكر الناس بما يجب عليهم عمله في جميع نواحي حياتهم .

ويؤكد ذلك أيضاً أن السورة في حوارها مع المشركين ، طالبتهم بأن يبرزوا كتاباً مقدساً محفوظاً لديهم قد أنزله الله عليهم ، يبيح لهم أن يشركوا مع الله آهتهم المزعومة ، فقالت : ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ إن لكم فيه لما تخيرون ﴾ .

وتعود السورة مرة أخرى لتطالبهم بتعليقات إلهية يتلقونها هم بأنفسهم مباشرةً من عالم الغيب ويسطرونها بأقلامهم ، وذلك إذا لم يكن لديهم كتاب إلهي موروث عن آبائهم ، فتقول : ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ ﴾ .

وهكذا نجد أن السورة تعني عناية كبيرة بالكتابة والكتب الإلهية التي هي (ذكر) يحفظ التشريعات الإلهية ، وهي بذلك (نعمة) كبرى . ومن ناحية أخرى فإن الكتاب الإلهي يكاد يكون في معظم أجزائه آيات تأمر بالمعروف أو تنهى عن المنكر ، أي أنه يتراوح بين (النعمة) و (المنع) . فالآيات التي تأمر بالمعروف إنما هي أمر بما هو (نعمة)

للناس ، فالأمر بالزكاة مثلاً نعمة كبيرة للفقراء ، كما أنه نعمة للمتصدق لأنها تزكي نفسه وتطهرها من الشح .

والآيات التي تنهى عن المنكر ، إنما هي (منع) لهذا المنكر ، فالنهي عن السرقة والربا والزنا مثلاً هو (منع) لفعل هذه المنكرات يؤدي في النهاية إلى (نعمة) تطهير المجتمع منها ومن شرورها .

النعمة والمنع في خصام المشركين للرسول ﷺ :

لقد أرسل الله إلى قريش رسولاً كريماً ، وأنزل إليهم كتاباً منيراً يوصلهم إلى أعظم (نعمة) ، وهي الجنة ، ورزقهم في الدنيا (نعمة) الأموال والبنين التي ذكرتها السورة بقولها : ﴿ أن كانَ ذا مالٍ وبنين ﴾ ، وطلب إليهم أن يشكروا الله على ذلك بالاعتراف به إلهاً واحداً لا شريك له ، وبتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه ، دون أن يسألهم على ذلك أجراً : ﴿ أم تسألهم أجراً فهم من مغرمٍ مُثقلون ؟ ﴾ .

فماذا فعلوا تجاه هذه (النعم) الكبرى التي أكرمهم الله بها ؟

إنهم حاولوا (منع) دعوة الله الخيرة الكريمة ، فهم (مناعون) للخير الأعظم ، وذلك كما قالت السورة واصفةً أحد زعماء المشركين : ﴿ مناعٍ للخير مُعتدٍ أثيم ﴾ . إنهم يفعلون كل ما يستطيعون لحجب هذه الدعوة عن الناس ، فيختلقون الأكاذيب لتشويه سمعة الرسول ، زاعمين تارة أنه مجنون ، وتارة أخرة أنه كاذب : ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ . وزاعمين

أيضاً أن القرآن ليس إلا قصصاً خرافية وردت عن القرون الغابرة :
﴿ إذا تُتلى عليه آياتنا ، قال : أساطير الأولين ﴾ .

ومن أساليبهم الخبيثة لمنع ظهور دعوة الحق تأليب الناس على الرسول
بالطعن فيه وفي أتباعه المؤمنين ، والمشي بالنميمة بينهم ، وسبهم بفاحش
الكلام وبذيئه ، وهذا من معاني الآية : ﴿ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ ، ومنها
كذلك الغلظة على ضعاف المسلمين : ﴿ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ ، والعتلُّ
هو اللفظ الغليظ ، والزنيم ، كما يقول ابن عباس ، هو الفاحش اللئيم .
ويقصدون من ذلك إلى فتنة المسلمين عن دينهم .

ومنها أيضاً محاولة (منع) الدعوة بحلف الأيمان الكاذبة الرخيصة
المتبدلة لتغطية أكاذيبهم : ﴿ وَلَا تَطْعَ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾ .

ومنها أيضاً محاولة استدراج الرسول إلى القبول بالشرك عن طريق
مطالبته بأمرٍ فيه بريق الاعتدال والتوسط والمرونة - وهم التجار الذين
يمارسون هذا الأسلوب في مساوماتهم وصفقاتهم التجارية - ذلك أنهم
طالبوه بأن يعترفوا له بالنبوة ، مقابل أن يعترف لهم بألهتهم . تقول
السورة : ﴿ وَدَّوَّا لَوْ تَدَهَّنَ فَيَدَهَّنُونَ ﴾ أي هم يرغبون في أن تقبل حلاً
وسطاً فيقبلونه . وهم الراحون طبعاً في هذه الصفقة ، لأن الرسول
لو أطاعهم في ذلك ، لأصبح مشركاً مثلهم ، وماذا ينفعه حينئذ اعترافهم
بنبوته ، إذا خرج هو بنفسه عن هذه النبوة بالإشراك بالله
لذلك نهته السورة نهياً حاسماً عن القبول بالحل الوسط (المداهنة)

فقلت : ﴿ فلا تُطعِ المكذِبين . ودّوا لو تدهنُ فيدهنون ﴾ .

إنهم يحاولون (منع) (نعمة) الإسلام ، أي منع نعمة (الجنة) عن الناس ، ومنعهم من التمتع بشمار جنات النعيم المقيم .

فكيف يعامل الله هؤلاء (المناعين) للخير ، المناعين للنعمة والجنة ؟

ثم كيف يعامل الله المؤمنين الطائعين (الممتنعين) عن المعاصي ؟

فأما (المناعون) للخير فإنهم يُجَازُونَ (بالمتع) منه في الدنيا والآخرة . ففي الدنيا يمنع الله عنهم العزة والزعامة التي كانوا يتمتعون بها ، ويلحق بهم الخزي والعار : ﴿ سَنَسِمْهُ عَلَى الْخَرْطُومِ ﴾ ، فالوسم على الخرطوم تعني الإذلال . وقد أذل الله المشركين أفضع إذلال على أيدي المؤمنين بهزيمتهم في معركة بدر ، التي قُتل فيها عدد كبير من أشرس قادتهم (منهم أبو جهل) ، ثم بهزيمتهم نهائياً في فتح مكة وتحطيم أصنامهم وأوثانهم .

وأما في الآخرة فينتظرهم أيضاً (المنع) من العزة والكرامة والأموال والبنين ، وهي (النعم) التي كانوا يتمتعون بها في الدنيا . وتدل على ذلك نفس الآية : ﴿ سنسّمه على الخرطوم ﴾ إذ يمكن حملها على إذلال المشركين في الآخرة أيضاً .

ومن إذلالهم في الآخرة تعذيبهم في نار جهنم تعذيباً مُدِلاً مهيناً .

تقول السورة : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وتقول :

﴿ يوم يكشفُ عن ساقٍ ويُدْعَوْنَ إلى السجودِ فلا يستطيعون . خاشعةً
أبصارهم ، ترهقهم ذلّة ، وقد كانوا يُدْعَوْنَ إلى السجودِ وهم
سالمون ﴾ . وتفيد هذه الآية أن المشركين (يُمنعون) من
السجود لله تعالى ، أي يُمنعون من القرب منه ، لأن السجود قُرب ،
وذلك كما قال تعالى : ﴿ وأسجدوا قُرباً ﴾ .

وهذا المنع من السجود لله والقرب منه هو أعظم خزي ومهانة وإذلال
﴿ خاشعةً أبصارهم ترهقهم ذلّة ﴾ .

لقد حاولوا (منع) النعمة الكبرى ، وهي الإسلام ، عن الناس ،
فمنعهم الله نعمة الجنة ونعمة رضاه والاقتراب منه ، جزاءً وفاقاً .

وأما المؤمنون الذين أطاعوا ربهم ، فعملوا بما أمرهم في كتابه
المسطور ، و(منعوا) أنفسهم عما نهاهم عنه ، فلن يعاملهم كما عامل
المشركين ، بل (ينعم) عليهم بأعظم نعمة : ﴿ إن للمتقين عند ربهم
جنّات النعيم . أفجعلُ المسلمين كالمجرمين ؟ ﴾ ، إن المساواة بين
الفريقين أمر (ممتنع) ، لأنه ظلم ، ولا يظلم ربك أحداً .

وتشير السورة إلى أن نعمة الجنة لا تزول أبداً فتقول : ﴿ وإنّ لك
لأجرأ غير ممنون ﴾ أي غير (ممنوع) ولا مقطوع ، فهي نعمة بلا منع .

٢ - قصة أصحاب البستان :

بعد أن بيّنت سورة القلم للمشركين حقيقة موقفهم وعاقبته ، ضربت

لهم مثلاً بقصة تشبه حالهم مع الرسول والمؤمنين ، وهي قصة أصحاب الجنة ، أي أصحاب البستان الذين حاولوا (منع) المساكين في بلدهم من أخذ حقهم من ثمرات بستانهم فبيتوا النية على أن يقطعوا ثمارهم مبكرين قبل أن يصل المساكين إلى بستانهم فيطالبوهم بحقهم من الثمار .

غير أن الله تعالى ، الذي (أنعم) عليهم بهذا البستان ، وأغدق عليهم ثمراته سنين طويلة ، جازاهم على المنع بالمنع ، فأرسل على بستانهم آفة سريعة في نفس تلك الليلة التي بيتوا فيها نيتهم الخبيثة ، فقضت الآفة على ثمارهم ، فمنعتهم منها جزاءً لهم على منعهم المساكين من حقوقهم فيها .

فلما رأوا ما حلَّ ببستانهم ، علموا أن ذلك كان عقاباً عاجلاً لهم ، واعترفوا بذنبهم وظلمهم : ﴿ فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون ... قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ ، وكلمة ﴿ محرومون ﴾ تعني أنهم (ممنوعون) من التمتع بثمار بستانهم .

وهناك شبه واضح بين قصة المشركين مع رسول الله ، وقصة أصحاب الجنة مع المساكين . فالمشركون حاولوا منع الناس عن الإيمان بالله والعمل بشريعته ودخول الجنة والتمتع بثمارها ، وأصحاب البستان حاولوا منع المساكين من التمتع بحقهم من ثمار (جنتهم) الدنيوية . وجازى الله أصحاب البستان بالمنع من ثمار جنتهم ، كما سيجازي المشركين يوم القيامة بالمنع من ثمار جنة النعيم .

ولهذا التشابه بين القصتين قالت السورة : ﴿ إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ فكلمة (كما) تفيد هذا التشابه .

إن هذا التشابه بين موقف المشركين من الرسالة الإسلامية وموقف أصحاب البستان من المساكين ، يظهر التناسق والانسجام بين أجزاء السورة ، ويؤكد وحدة موضوعها .

٣ - قصة يونس عليه السلام :

أرسل الله يونس إلى قومه ليهديهم إلى الدين الحق ، لكنه لم يجد منهم أذناً صاغية ولقي منهم الإعراض الشديد ، مما أياسه من قبولهم لرسالته ، (فامتنع) عن إتمام دعوته لهم ، دون أن يتلقى إذناً بذلك من ربه ، وتركهم مهاجراً إلى شاطئ البحر ، حيث ركب سفينة مثقلة بالركاب والبضائع ، وهاج البحر وتلاطمت أمواجه ، فلما خاف الركاب على أنفسهم من الغرق ، ألقوا يونس من السفينة إلى البحر ، بعد أن اقرعوا على ذلك فيما بينهم ، ليخففوا من حمل السفينة ، فابتلعه حوت كان قريباً من السفينة .

وقد أدرك يونس وهو في بطن الحوت أنه أخطأ بامتناعه عن هداية قومه دون إذن من ربه ، فاستغفر ربه وسبّحه معترفاً بذنبه قائلاً : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ ، فغفر الله له وأنقذه ، وأنعم عليه بمنع نبذه وحبسه في بطن الحوت ، تقول السورة : ﴿ فاصبر لحكم ربك ، ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم .

لولا أن تداركهُ نعمة من ربه لُنَبَذَ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴿ .

وهنا نجد شبهاً بين قصة يونس وقصتي المشركين وأصحاب البستان . فإن يونس عليه السلام (امتنع) عن دعوة الناس إلى الدين الحق ، أي كان سبباً في (منع) الناس من دخول الجنة يوم القيامة ، دون قصد طبعاً ، فجازاه الله بالمنع من نور الحياة ، فأدخله إلى ظلمات بطن الحوت .

أي أن فكرة القصص الثلاث واحدة ، وهي : أن مَنْ مَنَعَ نعمة الله عن قوم مَنَعَ الله عنه النعمة .

تشابه قصة يونس وقصة رسولنا :

بالإضافة إلى ما تقدم ، فإن هناك أمراً آخر يربط ما بين قصة يونس عليه السلام بقصة رسولنا ﷺ مع المشركين ، وهو أن في كل من القصتين رسولاً يدعو قومه إلى الله فيعرضون عنه ويحاولون منعه من إتمام رسالته لذلك يدعو الله رسولنا ﷺ أن يجتنب الخطأ الذي وقع فيه يونس عليه السلام ، فيقول له : ﴿ ولا تكن كصاحبِ الحوت ﴾ ، أي لا (تمتنع) عن إتمام رسالتك كما (امتنع) يونس عن إتمام رسالته ، تحت ضغط إعراض المشركين وأذاهم وغلظتهم .

تشابه قصة يونس وقصة أصحاب البستان :

تشابه هاتان القصتان في أن من ارتكب خطيئة (المنع) في كل منهما مؤمن اعترف بخطيئته بعد ارتكابها واستغاث بربه مستغفراً . فأصحاب الجنة ، بعد أن دمر الله ثمار بستانهم ، أدركوا خطأهم واعترفوا بظلمهم وسبحوا ربهم قائلين : ﴿ سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ . وكذلك يونس عليه السلام ، أدرك ذنبه حينما التقمه الحوت ، وسبح ربه بعبارة تشبه عبارة أصحاب البستان ، فقال : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ .

وتؤكد القصتان أن رحمة الله تسبق غضبه - كما ورد في الحديث النبوي الصحيح - وأن نعمته تعالى تسبق منعه ونقمته ، إذا أناب من عصاه وتاب وناداه تعالى مسبّحاً مستغفراً .



وهكذا أبرزت هذه الدراسة الترابط الواضح والتناسق الكامل بين أجزاء سورة القلم جميعاً ، مؤكدةً أنها تدور حول موضوع واحد ، وتشابك متشابهةً ومتناسقة .

إن هذا الترابط في سورة القلم يشير إلى حقيقة إعجاز القرآن الكريم الحكيم وحكمته ، إذ يضع الآيات المناسبة في المكان المناسب ، ويضمّم القصة المناسبة إلى القصة الملائمة ، وكل ذلك ضمن إطار مطرب ،

وإيقاع أخذ . أفلم تسمع رنين حرف النون في السورة ، وهو يرنّ بلحن

شجيّ في معظم آياتها القصيرة المتلاحقة ؟

أولم تأخذك المفاجآت القصصية الرائعة التي أبرزتها السورة ؟

كمفاجأة أصحاب البستان بتدمير بستانهم بين عشية وضحاها ، ومفاجأة

دخول يونس إلى بطن الحوت ثم خروجه منه ؟

إنه كلام يتحف العقل والفكر ، ويثير القلب والوجدان ، ويهز

النفس ويضطرب الأذن .

إنه كلام رب العالمين .

سورة ص

﴿ص والقرآن ذي الذكر...﴾ (إلى آخر السورة) ﴿

سورة ص

سورة الخصاص والصراط

لقد استعنت بحرف الصاد الذي يتصدّر هذه السورة الكريمة ، من أجل معرفة الموضوع الوحيد الذي تدور حوله السورة ، وذلك بأن نظرت في أبرز كلماتها التي تحوي حرف الصاد ، وهي كلمات (الخصاص ، الصراط المستقيم ، العمل الصالح ، الإخلاص ، الصبر ، الإبصار ، الفصل) .

وبالتفكير في معاني هذه الكلمات ومعاني آيات السورة ، وجدت ترابطاً تاماً بين معاني هذه الكلمات . فأما (الخصاص) فهو موضوع السورة الأساس . وأما (الصراط المستقيم) ، وهو شريعة الله - فهو الذي يجري الخصاص بسببه ، فالخصام يجري دائماً بين سالكي هذا الصراط والمنحرفين عنه .

وأما (الإخلاص ، والعمل الصالح والإبصار والصبر) فهي ترتبط بالصراط المستقيم .

ذلك أنه لا بدّ لسالك الصراط من الإخلاص في عبادة الله وحده ، ولا بدّ له من القيام بالعمل الصالح ، ولا بدّ له من (إبصار) طريقه التي

يسلكها حتى لا يتعثر ولا يسقط ، كما أنه لا بدّ له من الصبر على مشقات سلوك الصراط ، فهو طريق وعر لا يخلو من حُفر الابتلاء وسقطات الذنوب .

كما أن كل خصام لا بدّ أن ينتهي بـ (الفصل) بين المتخاصمين ، وذلك إما بنصر أحدهما على الآخر في الدنيا ، وإما بالفصل بينهما يوم القيامة ، فيفصل الكفار عن المؤمنين ، بوضع الكفار في جهنم ، دار الخصام ، وإدخال المؤمنين جنة النعيم ، دار السلام ، بسلام لا يشوبه غلّ ولا خصام .

هذه هي المعاني الرئيسة لسورة ص . فلننظر الآن في الأماكن التي وردت فيها الكلمات المذكورة التي تحوي حرف الصاد ، قبل معالجة معاني أجزائها بالتفصيل .

ورد (الخصام) في السورة في الآيات : ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب ﴾ و ﴿ قالوا لا تحفّ خصمان بغى بعضنا على بعض ﴾ و ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ و ﴿ ما كان لي من علمٍ بالملا الأعلى إذ يختصمون ﴾ .

وورد ﴿ الصراط ﴾ في الآية : ﴿ واهدنا إلى سواء الصراط ﴾ . وورد (الصبر) في الآيات : ﴿ امشوا واصبروا على آهتكم ﴾ و ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ و ﴿ إنا وجدناه صابرا ﴾ . وورد (الإخلاص) في الآية : ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى

الدار ﴿ و ﴾ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ﴿ . وورد العمل (الصالح) في ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ و ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ﴾ . وورد (الإبصار) في الآية : ﴿ أولي الأيدي والأبصار ﴾ . وورد (الفصل) في الآية : ﴿ وآتيناها الحكمة وفصل الخطاب ﴾ . ووردت كلمات أخرى بنفس معاني هذه الكلمات المذكورة ، لكنها لا تحوي حرف الصاد . فمن ذلك : (الشقاق) التي هي بمعنى يقارب معنى (الخصام) ، وقد وردت في الآية : ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ . و (سبيل الله) التي هي بمعنى (الصراط) وردت في الآية : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد ﴾ . وورد (الحكم) الذي هو بمعنى (الفصل) في الآية : ﴿ فاحكم بيننا بالحق ﴾ .

الخصومات وأنواعها :

إن (الخصام) يعني في الأصل (الجدال) ، غير أن الخصام ليس مجرد حرب كلامية ، بل هو الجزء الظاهر من حرب كلية ، تدور بين أعداء يريد أحدهم أن يوقع بخصمه ويقضي عليه . (وهذا الخصام الجدلي ، أو الحرب الكلامية ، لا بدّ منها لدعم الخصام الحربي ، كما نعلم في هذه الأيام . فما من حرب تدور بين دولتين ، إلا تسبقها حرب كلامية شديدة بين الأجهزة الإعلامية للدولتين ، من صحافة وإذاعات مسموعة ومرئية

وغيرها . وتستمر هذه الخصومة الإعلامية في أثناء الحرب ، وحتى بعد الحرب أحياناً .

والخصام على أنواع متعددة أهمها :

١ - الخصام بين جماعتين ، وهو يجري بين دولتين أو قبيلتين على أسس عرقية أو دينية أو مبدئية .

٢ - الخصام في داخل الأسرة الواحدة ، كالخصام بين الزوجين أو بين أخوين .

٣ - الخصام في داخل النفس البشرية ، فكم من إنسان يصرع نفسه ويغالبها ، ليكفها عن إيراده موارد وخيمة العواقب . أو لم يقسم الله تعالى في سورة القيامة بالنفس (اللوامة) تعظيماً لها ، لأنها تلوم الإنسان على فعل الشرّ ، وتخاصمه بسبب تصرفاته الخاطئة ؟

٤ - الخصام بين الإنسان والأحياء الأخرى ، كالجراثيم والأمراض التي تصارع جسم الإنسان ، ويصارعها بما فيه من أجهزة المناعة . وما أعراض هذه الأمراض من حمى وتورمات وغيرها ، إلا مظاهر لهذا الخصام بين الإنسان والأمراض .

٥ - الخصام بين الإنسان والأحوال الجوية من حر شديد في الصيف وبرد شديد في الشتاء . وقد استطاع الإنسان أن يتغلب على هذه الأحوال الجوية ببناء البيوت التي يأوي إليها ، فأصبح (البناء) من خصائص الحياة البشرية .

٦ - الخصام بين الإنسان والشيطان أعظم عدو للإنسان .

* * *

كل هذه الألوان من الخصومات عاجلتها سورة ص ، وعرضتها عرضاً وافياً ، مبيّنة أن الجذور العميقة للخصام تكمن في أعماق النفس البشرية ذات الطبيعة الثنائية والبنية المتناقضة . ففي النفس البشرية فجور وتقوى ﴿ ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها وتّقواها ﴾ . وفي النفس طبيعة طينية نارية تمتّ بصلة إلى الطبيعة الشيطانية ، كما أن فيها طبيعة روحية نورانية تمتّ بصلة إلى الطبيعة الملائكية .

أما الطبيعة الطينية النارية ، فقد أشارت إليها السورة بقولها : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرٍ من طين ﴾ . وأما الطبيعة الروحانية فأشارت إليها بقولها : ﴿ فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ .

وسيجد القارئ الكريم إن شاء الله تفصيلاً لهذه الطبيعة البشرية المتناقضة في فصل آخر من هذه الدراسة .

الصراط محور الخصام :

إن الصراط المستقيم - كما بينت سابقاً - هو المحور الذي يدور حوله الخصام بين جماعات البشر وأسرهم وأفرادهم ، بل بين الملائكة والشياطين وبين الإنسان ونفسه والصراط المستقيم - كما تقول سورة ص -

هو سبيل الله ، أي المنهج الذي أمر الله عباده بسلوكه ، وهو ينطوي على معرفة الله والإيمان به وحده إلهاً خالقاً للكون كله ، مسيطراً على الوجود بأسره ، مُسَيِّراً له بالحكمة وبالحق ، لا بالباطل ، فلا عبث ولا صُدفة في هذا الكون : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ . وتقول السورة في أمر توحيد الله تعالى - وهو جوهر الصراط المستقيم - ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

كما أنَّ سالك الصراط يجب أن يتمتع بصفة الطاعة لأوامر الله والخضوع له ، فيعمل الأعمال الصالحة من (صلاة) و (صيام) و (صدقة) وغيرها ، ويجتنب ما نهى الله عنه .

ومن صفات سالك الصراط أيضاً (الصبر) ، لأن الصراط المستقيم ليس طريقاً سهلاً ، بل هو مليء بالمصاعب والعقبات التي تعترض السالك ، والحفر العميقة التي قد تعيق مسيرته زماناً طويلاً أو قصيراً . وهذه العوائق تنتج عن عوامل ثلاثة هي :

أولاً : النفس الأمارة بالسوء وأهواؤها التي قد توقع الإنسان في الخطيئة . ومثالها ما حدث من أبينا آدم الذي أكل من الشجرة المحرّمة بدافع الشهوة ، ومثاله أيضاً من سورة ص الخطيئة الرمزية التي وقع فيها كل من داود وسليمان عليهما السلام .

ثانياً : الخصوم المناوئون من البشر الذين غلبت عليهم الطبيعة الطينية ، فهؤلاء قد انحرفوا انحرافاً بعيداً عن الصراط المستقيم ،

ولم يكتفوا بذلك ، بل جعلوا يحاولون إسقاط المؤمنين عن الصراط ،
فيحاربونهم بكل شراسة وضراوة ، ومثال ذلك ما ورد عن الكافرين في
مطلع سورة ص .

ثالثاً : الشيطان وجنده ، الذين يقفون من بني الإنسان موقفاً عدائياً
حاقداً ، أعلنه كبيرهم ابليس إذ قال في أواخر سورة ص : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ
لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

الصراط والوسطية :

بيّنت فيما سبق أن الإنسان ذو طبيعتين متناقضتين طينية نارية ،
وروحانية ملائكية . وهذا لا يعني أبداً أنه ينبغي عليه أن يقضي على
الطبيعة الطينية قضاء تاماً ، بل عليه أن يوفق بين هاتين الطبيعتين بحيث
لا تطغى إحدهما على الأخرى . فالمطلوب من سالك الصراط المستقيم
أن يحافظ على التوازن بينهما ، فيضع كلاً منهما ضمن حدودها التي
رسمها الله لها ، وبذلك يحافظ على الوسطية والاعتدال .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في صفة عباد الرحمن : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا
لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان : ٦٧) .

ومن أمثله ما ورد في الحديث الشريف الذي يفيد أن ثلاثة من
الصحابة اجتمعوا ، فقال أحدهم إنه سيقوم الليل يصلي ، ولا ينام
أبداً ، وقال الثاني إنه سيصوم الدهر كله ولا يفطر أبداً ، وقال الثالث إنه

لن يقرب النساء أبداً . فلما سمع الرسول بما قالوه قال لهم : إنني أقوم
وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأقرب النساء ، فمن رغب عن سنّتي فليس
مني .

فهذا الحديث يفيد أن المؤمن ينبغي له أن لا يحتقر الطبيعة الطينية التي
جعلها الله واحداً من ركني حياته ، وإلا كان شبيهاً بإبليس ، الذي عصى
ربه حين أمره بالسجود لآدم ، احتقاراً منه لطبيعة آدم الطينية ، كما قالت
سورة ص : ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟
أستكبرت أم كنت من العالين ؟ قال : أنا خير منه ، خلقتني من نارٍ
وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ .

الصراط والإبصار :

لا بدّ لكل سالك طريق من أن يكون (مبصراً) ، وذلك لكي يرى
طريقه فلا ينحرف عنه فيهلك . وقد ذُكر (الإبصار) وأسبابه في
سورة ص . فقد ذُكر لفظاً في الآية التي تُثني على الرسل والأنبياء الكرام
فتصفهم بأنهم : ﴿ أولي الأيدي والأبصار ﴾ ، أي أصحاب القوة
والبصر الحادّ .

فأما القوة فهي لازمة لسلوك الطريق ، وهي تشمل قسمين سبق
ذكرهما ، وهما القدرة على (الصبر) والتحمل ، والقدرة على (العمل
الصالح) .

وأما (البصر) فقد ذكرت السورة الأسباب التي تعمل على تقويته وإرشاده ، وهي كتاب الله ورسله . فكتاب الله نور مبين يجلو الحقائق للأبصار ، فتراها وتمسك بها ولا تنحرف عنها . لذلك سُمِّي القرآن (بصائر) . وقد ورد ذكر كتاب الله في سورة ص في مواطن منها : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ، أي لِيُضِيءَ الطَّرِيقَ أَمَامَ الْأَبْصَارِ . ومنها : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ ، أي تبصرة لجميع العقلاء .

ولأعرض الآن أجزاء سورة ص ، وما ورد في كل منها من موضوع (الخصام) وما يتعلق به من (صراط وإخلاص وإبصار وصبر وعمل صالح وفصل) .

١ - خِصَامِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ، كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحْنِ مَنَاصٍ ، وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ، أَجَعَلَ الْإِلَهَةَ الْإِلَهًا وَاحِدًا ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ، وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصبروا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ، أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ؟ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يذوقوا عَذَابٍ ، أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ؟ أَمْ لَهُمْ مَلِكٌ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ، جُنْدًا مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ، كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ، وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابِ ، إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ، وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ، وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ، اصبرِ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ .

يبيِّنُ هَذَا الْجُزْءَ مِنَ السُّورَةِ الْخِصَامِ الْعَامِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَمِيعِ الْعَصُورِ الَّتِي أَرْسَلَ اللَّهُ فِيهَا الرُّسُلَ لِلْأُمَّمِ الْمُخْتَلِفَةِ ، كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَفِرْعَوْنَ . لَكِنَّ السُّورَةَ تَفْصِّلُ الْخِصَامَ الَّذِي كَانَ قَائِمًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، بِقِيَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي زَمَنِ نَزُولِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ رَفَضُوا الدَّعْوَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ ، بِمَا فِيهَا مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ - جَوْهَرِ الصَّرَاطِ

المستقيم - مستغربين أن يكون في الكون إله واحد ، فقالوا مجادلين : ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ . كما استغربوا أن يكون الرسول بشراً من بينهم : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ ، إذ كانوا يتوقعون أن يرسل الله إلى البشر رسولاً من الملائكة .

وسبب انحراف المشركين عن الصراط ورفضهم دعوة التوحيد ، هو طغيان الطبيعة الطينية النارية على عقولهم وتصرفاتهم . ذلك أنهم كانوا يزعمون أنهم أشرف رجال قريش وأعظمهم مالاً وأكثرهم عدداً وأعلاهم مقاماً ، فهم يستكبرون عن اتباع محمد ﷺ ، الذي كانوا يرونه أدنى منهم مقاماً .

وهذا ما عبرت السورة عنه بقولها : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ ، فالعزة تعني هنا الاستكبار والغرور ، وهما من الطبائع النارية الشيطانية التي أكدتها السورة في أواخرها ، إذ ذكرت أن إبليس امتنع عن السجود لآدم قائلاً لربه : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ ، استكباراً واستعلاءً .

وما يؤكد أنهم كانوا يستكبرون على النبي الكريم ويرونه أدنى منهم مقاماً ، قولهم : ﴿ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا ؟ ﴾ مما يشعر بأنهم كانوا يستهجنون أن ينزل الوحي على رجل أدنى منهم جاهاً ومالاً .
وأما (الصبر) - الذي هو من الأمور الضرورية لسالك الصراط - فقد

ورد في هذا القسم من السورة حيث أوصى الله به رسوله الكريم فقال : ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ . وكذلك أوصى المشركون بعضهم بعضاً بالصبر على دينهم الباطل فقالوا : ﴿ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ .

ولما كان الأنبياء هم قادة فريق المؤمنين ضد فريق الكافرين في عصورهم المختلفة ، فإن السورة أوردت صفتين أخريين من صفات فريق من كرام الأنبياء - وهم خير من سلك صراط الله - وهما صفتا (الإبصار) و (الإخلاص) ، فنسبتها إليهم فقالت : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار ﴾ ، فقد رزقهم الله إخلاص العبادة له وحده استعداداً للدار الآخرة ، حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . كما رزقهم القدرة على إبصار الطريق الذي يسلكونه ، فلا يضلون ولا ينحرفون عنه .

ومن الصفات اللازمة لسالكي الطريق المستقيم - وهم الفريق المؤمن - القيام بالأعمال (الصالحة) . وقد نسبت السورة الأعمال الصالحة إلى « الذين آمنوا » فقالت : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ؟ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟ ﴾ . ولما كان (الفصل) بين المتخاصمين أمراً لا بد منه لكل خصام ، فإن

هذا (الفصل) بين فريقَي المؤمنين والكافرين قد ذكرته السورة في
مقامين :

(أولهما) : الفصل بينهما في الدنيا ، وذلك بعد عناد الكفار واليأس
من إيمانهم ، ويتم هذا الفصل بإهلاك الكفار ونصر المؤمنين ونجاتهم .
ونجد ذلك في الآيات : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلَاتَ حِينَ
مَنَاصِرَ ﴾ ، ﴿ إِنَّ كُلَّ إِلا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ . وما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلا
صَبيحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فِواقٍ ﴾ .

(وثانيهما) : الفصل بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة ، الذي سَمَّاهُ
القرآن الكريم في عِدَّة سور أُخرى « يوم الفصل » ، وذلك بوضع
المؤمنين في ﴿ جَناتٍ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهم الأَبوابُ . مُتَكئينَ فيها يَدْعونَ فيها
بِفاكِهَةٍ كَثيرةٍ وَشِرابٍ ، وَعِندَهُمُ قاصِراتُ الطَرفِ أَترابُ ، هذا
ما توعَدونَ ليومِ الحِسابِ . إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهِ مِنْ نَفادٍ ﴾ ، ووضع
الكافرين في : ﴿ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَها فِئسَ المِهادِ ﴾ .

٢ - الخِصامُ في قِصَّةِ داودَ

﴿ واذكُرْ عبدَنا داودَ ذا الأَيدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ، إِنّا سَخَرنا الجِبالَ مَعَهُ
يُسَبِّحُنَ بالعِشيِّ والإِشراقِ ، والطَيرَ مَحشورَةً كُلُّ لَه أَوَّابٌ ، وَشَدَدنا مُلْكَهُ
وَآتيناَهُ الحِكمةَ وفَصَلَ الخِطابِ ، وهَل أَناكَ نَبأُ الخِصمِ إِذ تَسَوَّروا
المِحْرابَ ، إِذ دَخَلوا عَلى داودَ فَفَزِعَ مِنْهُم ، قالوا لا نَحْفُ : خِصمانِ بَغى

بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ، فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَبِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ : أَكْفَلْنِيهَا ، وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ . قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ . وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ . يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٤٢﴾ .

في هذا القسم من السورة نجد حادثتين من حوادث (الخصام) ، وهما حادثتان متشابكتان متداخلتان . فقد حدثت داود نفسه - بتأثير من الطبيعة الطينية الخطاءة - بأمر فيه انحراف عن (الصراط) المستقيم ، وهو مجرد حديث نفس ، لا يمكن لنبي أن يرتكبه فعلاً ، لأن الأنبياء جميعاً معصومون من ارتكاب الفواحش . ولم تبيِّن السورة هذا الأمر الخاطيء الذي حدثت داود به نفسه ، غير أنها ذكرت حادثة الخصام الثانية التي تلقي بعض الضوء على ذلك الأمر الخاطيء .

فقد أرسل الله اثنين من الملائكة لوعظ داود وتذكيره بخطأ تفكيره ، فدخلا عليه المحراب دخولاً مفاجئاً أفزعه ، متمثلين بصورتي رجلين ، ادعى أحدهما أنها خصمان جاءا يتحاكما إلى داود ليفصل بينهما ، وهو

النبيّ الملك الحاكم العادل الذي آتاه الله : ﴿ الْمَلِكُ وَفَضَلَ الْخِطَاب ﴾ .
فقال أحدهما إنه يملك نعجة واحدة ، بينما يملك أخوه تسعاً وتسعين
نعجة . لكن أخاه لم يقنع بنعاجه الكثيرة ، بل أراد أن يضم نعجة أخيه
الفقير إلى نعاجه عنوة واغتصاباً ، ووجه إليه كلاماً قاسياً ليحملة على
تسليمه نعجته . وطلب إلى داود أن يحكم بينهما مبيّناً لهما ﴿ سَوَاء
الصراط ﴾ ، أي المنهج المستقيم الذي يجب أن يسلكاه .

ولم يلاحظ داود في أول الأمر أنها قد أتياه بهذه القضية لتذكيره
بخطيئته ، ففضى بينهما كما يقضي بين أي خصمين يأتيانه ، قائلاً إن الأخ
صاحب النعاج الكثيرة قد ظلم أخاه باغياً خارجاً عن الصراط المستقيم ،
وهو أمر يقع فيه كثير من الشركاء ما عدا من أخلصوا إيمانهم بالله وعملوا
الصالحات .

وهنا فطن داود إلى أن هذين الخصمين إنما جاءا لينبّهاه إلى حديث
النفس الخاطيء الذي خطر له ، فاستغفر ربه وركع له ورجع إليه .
فالحادثة الأصيلة إنما هي حادثة خصام أو صراع نفسي ، دار بين
طبعتي داود الطينية النارية والروحانية الملائكية . فقد حدثته نفسه الطينية
بأمر خاطيء يشبه ما ورد في القصة التي مثلها أمامه الملكان المتخاصمان .
وقد يكون ذلك أن داود الذي كان يملك تسعاً وتسعين زوجة ، قد حدثته
نفسه بأن يضمّ إلى زوجاته هؤلاء زوجة جميلة لأحد قواده العسكريين .
فهو بذلك قد خطر له خاطر منحرف عن الصراط المستقيم ، لكنه

لم ينحرف عنه فعلاً ، كما تزعم توراة اليهود ، التي قالت إنه قد نفذ هذه الخطيئة الفاحشة ، بأن أرسل ذلك القائد زوج المرأة إلى حرب مهلكة ليموت فيها ، ويأخذ هو زوجته من بعده .

والدليل على أنه لم ينفذ هذه الخطيئة ، ما تقرره سورة ص من أن الله نبهه إلى فحش هذا العمل قبل أن يقع فيه ، وذلك بإرساله الملكين المتخاصمين ، ففطن داود إلى ذلك واستغفر ربه ، فغفر الله له حديث نفسه الخاطيء وأثنى عليه قائلاً : ﴿ وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ .

ونرى هنا عناصر الموضوع الأساسية واضحة ، فأما (الخصام) فقد ذكرته السورة بقولها : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ ﴾ ، وقولها : ﴿ خَصْمَانِ ﴾ بغى بعضنا على بعض . وذكرت السورة (الصراط) بقولها : ﴿ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ ، وذكرت بالمعنى بقولها : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

وذكرت (الصبر) ضمناً ، ولم تذكره صراحة ، وذلك حين بينت أن داود لم يفعل الخطيئة بل ثبت أمام الإغراء حتى زال خطر الانحراف واستغفر ربه . كما ذكرت (الإخلاص) ضمناً بقولها إن داود : ﴿ اسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ ، أي لم يعترف بغير الله رباً يغفر الذنوب ورجع إليه تعالى وحده .

وذكرت السورة العمل (الصالح) صراحةً فقالت : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ

الخُلطاء لِيَبغي بعضهم على بعضٍ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿٤٠﴾ . وذكرت (الفصل) بقولها : ﴿ وآتيناها الحكمة وفصل الخطاب ﴾ ، وذكرته بالمعنى إذ قالت : ﴿ فاحكم بيننا بالحق ﴾ بمعنى : ﴿ فافصل بيننا بالحق ﴾ .

ويلاحظ أن الخصام بين داود ونفسه ، قد تمّ الفصل فيه بنصر داود على نفسه واستغفاره وركوعه ، أي بنصر الطبيعة الروحانية فيه على الطبيعة الطينية ، وبإعادة سيره المتوازن على الصراط المستقيم .

وفي قصة داود تأكيد لطبيعة الصراط الوسطية التوازنية . فليس المطلوب من سالك الصراط أن يقضي على طبيعته الطينية المادية قضاءً مبرماً ، فينتزعها من نفسه من جذورها ، ويعطل نشاطها تعطيلاً كاملاً ، بل المطلوب منه أن يوقفها عند حدودها التي رسمها الله لها . إن داود لم يخطيء ولم يخرج عن الصراط حين امتلك تسعاً وتسعين زوجة للتمتع بهن ، ما دام ذلك كان ضمن شريعته ، أي ضمن الصراط الذي شرعه الله له ، لكنه أخطأ حين حدثته نفسه باغتصاب امرأة واحدة بغير الحق .

٣ - الخصام في قصة سليمان

﴿ وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ . فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ

بالحجاب . رُدَّوْهَا عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ . ولقد فتنَّا سليمانَ وألقينا على كرسيِّه جَسَدًا ثمَّ أَنَابَ . قال ربُّ اغْفِرْ لي ، وَهَبْ لي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ . فسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُجَاءً حَيْثُ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ . وَأَخْرَيْنَ مُقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ . هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٦﴾ .

في هذا القسم من السورة أيضاً (خصام) نفسي ، هو صراع بين سليمان عليه السلام وبين نفسه ، إذ أخطأ خطيئتين غير فاحشتين ، ولام نفسه ، وانتهى خصامه لنفسه بالاستغفار والتوبة إلى الله . فأما الخطيئة الأولى ، فهي أنه كان يشهد عرضاً للخيل ، فشغله هذا العرض عن صلاة العصر حتى غابت الشمس ، فلام نفسه على ذلك قائلاً : ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ ، وهو خصام أو حوار أو جدل ذاتي وجهه سليمان إلى نفسه .

وأما الخطيئة الثانية ، فهي المذكورة في الآية : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ ، وهناك أقوال كثيرة في حقيقة هذه الفتننة ، ومعظمها من الإسرائيليات ، وخلصتها أن رجلاً استطاع أن يخذع سليمان ويبعده عن ملكه ، ويحل محله على كرسي الملك فترة من الزمن ، ثم كُشِفَتْ حَقِيقَتُهُ ، بعد أن ظهر الفرق الواضح بين شخصية

سليمان الحكيمه المتزنة وشخصية الغاصب المنحرفة ، وعاد سليمان إلى ملكه بعد هذه الفتنة .

وأياً كان المقصود بالفتنة ، فإن الفتنة ابتلاء من الله للإنسان وامتحان له في قدرته على حفظ التوازن بين طبيعته الملائكية والطينية ، وفي صحة انتهاجه لصراط الله المستقيم . وهو خصام يدور بين المرء ونفسه ، يدور حول قضية هذا الصراط .

وكما مر في قصة داود ، فإن المعرض إلى الفتنة لا بد له من الصبر والإخلاص لله والعمل الصالح لكي يستطيع الثبات على الصراط . وقد فصل الخصام بين سليمان ونفسه بأن غفر الله له .

وهنا يُلاحظ أن سليمان قد طلب من الله مُلكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعده ، مما يشير إلى أن انتهاج الصراط المستقيم لا يعني هضم حقوق النفس الطينية . فهذا نبيّ كريم ذو درجة روحانية عالية ، لم تمنعه هذه الدرجة من العيش في أبهة الملك الدنيوي وتسخير الشياطين في القيام ببناء القصور والغوص في البحار لاستخراج درره وصنع التماثيل له .

هذا وإن في تسخير الجن لسليمان في (بناء) البيوت إشارة إلى (خصام) الإنسان مع الجوّ والبيئة ، إذ يبني الإنسان البيوت لتحفظه من تحدي الحر والبرد والحيوانات المؤذية واللصوص .

كما أن في سيطرة سليمان على الجن إشارة إلى أن الإنسان يمكنه أن

يسيطر على طبيعته النارية الشيطانية الكامنة في أعماق نفسه ويكبح نزواتها ويكبلها في قيود شريعة الله : ﴿ وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ ، حافظاً توازنه الذي يقتضيه سلوكه على الصراط المستقيم .

كما أن في عقوبة سليمان للجن وتكبيها في القيود إشارة إلى الخصام العريق العميق بين الإنس والجن الذي بدأه إبليس حين أبى السجود لآدم ، والذي سيأتي تفصيله فيما بعد إن شاء الله .

٤ - الخصام في قصة أيوب

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ ، إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ .

في قصة أيوب عليه السلام حادثتان من حوادث الخصام : (الأولى) : خصامه مع المرض الشديد الذي أصابه والذي يمكن اعتباره أيضاً خصاماً مع الشيطان ، لأنه قال : ﴿ إِنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ . وهو ابتلاء قد يقود الإنسان إلى الانحراف عن (الصراط) إن هو تضرَّج من المرض واعترض على قدر الله وقضائه ، أو إن التجأ إلى غير الله في محاولة الاستشفاء ، أي إن افتقر إلى (الإخلاص) لله وحده . لكن أيوب أخلص لله إذ التجأ إليه وحده طالباً الشفاء ، فقد قالت

السورة إنه : ﴿ نادى رَبَّهُ ﴾ مستغيثاً من عذاب المرض . وقد (صبر)
أيوب على مرضه ، فقد قال تعالى عنه : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ
إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ .

وقد تمّ (الفصل) بينه وبين مرضه بأن نصره الله عليه وشفاه منه بعد
أن هداه إلى نبع ماء شافٍ اغتسل فيه وشرب منه .

وأما حادثة الخصام (الثانية) التي في قصة أيوب ، فهي خصامه مع
زوجته التي خدمته أتم الخدمة في فترة مرضه الطويلة ، لكنها أغضبتة مرة
لأنها باعت ضفيرة شعرها من أجل أن تنفق ثمنها عليه ، فأقسم أن
يضرها مئة ضربة إذا شفاه الله .

إن هذه الزوجة التي يزينها (الإخلاص) لله وللزوج ، قد سلكت
(صراط) الله المستقيم بتفانيها في خدمة زوجها ، فهو عمل (صالح)
يتصف (بالصبر) على رعاية المريض سنين طويلة . وقد تم (الفصل)
في هذا الخصام بالصلح بينهما ، إذ أفتى الله أيوب - لكي يبر بيمينه - أن
يضرب زوجته ضربة خفيفة واحدة بحزمة فيها مئة قضيب ، رحمةً بها
وبه .

٥ - الخصام في حياة إبراهيم ﷺ

﴿ واذكُرْ عِبَادَنَا إِبرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا

أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارَ . وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ
الأَخْيَارِ ﴿١١٤﴾ .

بَيَّنَّتْ سَابِقاً أَنَّ (الْخِصَامَ) يَعْنِي فِي أَصْلِ اللُّغَةِ (الْجِدَالَ) الَّذِي
يُخَوِّضُهُ الْخِصْمَانُ لِيَفْهَمَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ بِقُوَّةِ حُجَّتِهِ . وَلَيْسَ غَرِيباً أَنْ تُذَكَرَ
سُورَةُ صَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالذَّاتِ مَفْتُوحَةً بِاسْمِهِ عِدداً مِنَ الرُّسُلِ
الْكَرَامِ فِي هَذَا الْقِسْمِ مِنَ السُّورَةِ . ذَلِكَ أَنَّ سُورَةَ صَ هِيَ سُورَةُ الْخِصَامِ
وَالْمُتَخَاصِمِينَ ، وَإِبْرَاهِيمَ كَانَ مِثَالاً رَائِعاً فِي إِفْحَامِ خِصْمِهِ بِقُوَّةِ الْحُجَّةِ
الَّتِي مَيَّزَهُ اللَّهُ بِهَا إِذْ قَالَ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ .
نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (التوبة : ١١٤) .
وَقَدْ ذَكَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عِدداً مِنْ خِصْمَاتِ إِبْرَاهِيمَ الْجِدَلِيَّةِ مَبِيناً قُوَّةَ
حُجَّتِهِ الَّتِي أَفْحَمَتْ خِصْمَهُ :

١- فَمِنْ ذَلِكَ جِدَالُهُ لِلْمَلِكِ النَّمْرُودِ الْمَغْتَرِّ بِمُلْكِهِ الَّذِي وَرَدَ فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ، إِذْ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، قَالَ : أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ
فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ، فَبُهِتَ الَّذِي
كَفَرَ ﴾ (بقرة : ٢٥٨) أَي فَأَفْحَمَهُ إِبْرَاهِيمَ بِهَذَا الْمَنْطِقِ الرَّائِعِ ذِي الْحُجَّةِ
الْقَوِيَّةِ .

ب- وَمِنْ ذَلِكَ جِدَالُهُ لِقَوْمِهِ الْمُشْرِكِينَ ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ اخْتَلَى
بِأَصْنَامِهِمْ فِي مَعْبَدِهِمْ ، وَكَسَرَهَا جَمِيعاً مَا عدا أَكْبَرَ صَنَمٍ فِيهَا .

ولما اكتشفوا ذلك ، وأحضروا إبراهيم للتحقيق معه ، ووجهوا إليه تهمة تحطيم الأصنام ، نفى التهمة عن نفسه ، وألصقها بكبير الأصنام الذي تركه سالماً من الكسر ، وعندئذ أرادوا أن يقولوا له : إن هذا الصنم عاجز عن الحركة ، وهو مجرد من كل قوة ، فلا يستطيع كسر الأصنام الأخرى . لكنهم أدركوا فوراً أن إبراهيم سيصفع عقولهم السخيفة بأن يقول لهم : إذا كان هذا الصنم الأكبر عاجزاً ومجرداً من كل قوة ، وكانت سائر الأصنام مثله عاجزة عن الدفاع عن وجودها من اعتداء أحد البشر ، فكيف تتخذونها آلهة تطلبون منها العون لكم والحماية ودفع الضرر عنكم ؟!

حينئذ أدركوا ما عناه إبراهيم بمناورته البارعة ، واعترفوا فيما بينهم أنهم ظالمون متناقضون في تفكيرهم ، متكبرون عن سواء (الصراط) بعبادتهم لغير الله . وفي ذلك يقول الكتاب العزيز : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ . فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ، فَقَالُوا : إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (الأنبياء : ٦٤) .

ج- كما أورد القرآن الكريم جداولاً في (خصام) آخر جرى بين إبراهيم وقومه ، فقال : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ، قَالَ : أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ، وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ، إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّيَ شَيْئاً ، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ؟! وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ، فأئي الفريقين أحق بالأمن إن

كنتم تعلمون؟! الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴿ (الأنعام : ٨٣) .

وتتجلى قوة حجة إبراهيم ﷺ هنا ، إذ يقول لقومه : إنكم تعترفون بالله خالقاً ورباً وإلهاً ، كما تعترفون أنكم تعبدون الأصنام بناءً على عادة ورثتموها عن آباءكم ، ولم تعبدوها بحسب أمر أنزله الله إليكم ، فأنتم تعبدونها دون إذن من الله ، وبذلك تعرضون أنفسكم لغضب الله ، فأنتم أجدر أن تعيشوا في جو من الخوف من غضبه ، بينما أنا لا أعبد غير الله ، ولا أعبد ما لم يأذن الله بعبادته ، فلست في خوف من غضبه تعالى ، كما أنني لا يمكن أن أخاف من غضب آلهتكم إذا تركت عبادتها ، لأنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها .

د- وقد جادل إبراهيم عليه السلام أباه - الذي كان مشركاً - وذكر القرآن ذلك فقال : ﴿ يا أبتِ لمَ تعبدُ ما لا يسمعُ ولا يبصرُ ولا يُغني عنكَ شيئاً ﴾ (مريم : ٤٢) .

كيف سلك إبراهيم الصراط :

لقد سلك إبراهيم في حياته صراط الله المستقيم . قال تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين . شاكراً لأنعمه اجتناباً وهدهاء إلى صراط مستقيم ﴾ (النحل : ١٢١) .

ومن لوازم سلوك صراط الله (الإخلاص) ، وقد ذكره الله في هذا

القسم من سورة ص ، إذ قال في إبراهيم ومن معه من الأنبياء : ﴿ إنا
أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدار ﴾ . فإبراهيم كان ممن أخلص
العبادة لله وحده كل الإخلاص ، وذلك لأنه أيقن أن الإخلاص لله وحده
هو الذي ينجي من عذابه يوم القيامة ، ويوصل إلى الخلود في النعيم في
(الدار) الآخرة ، التي كان يذكرها دائماً ويضعها نصب عينيه في حركاته
وسكناته كما أن (الصبر) كان من صفات إبراهيم المميزة في سلوكه على
(الصراط) ، فقد قاوم شرك المشركين بلسانه ويده ، فناقشهم مناقشات
منطقية بارعة ، وكسر أصنامهم بيده ، وهو يعلم أنهم سينتقمون منه
ويعذبونه ، لكنه عزم على (الصبر) على تعذيبهم ، وقد هدّوه بإلقائه في
النار التي أوقدوها له إن لم يترك إيمانه ، لكنه ثبت وصبر ، فألقوه في النار
فعلاً ، فكافأه الله على صبره بأن جعل النار برداً وسلاماً عليه .

وكذلك سلك إبراهيم (الصراط) تزوّداً بالعمل (الصالح) ،
فأعماله الصالحة لا تُحصى ، وبخاصةً كفاحه المتواصل في سبيل الله ، لكن
من أهمها رفعه قواعد الكعبة بيت الله الحرام في مكة مع ابنه إسماعيل ،
ليكون مثابةً للناس وأمناً ، وليطوف حوله الطائفون ويعتكف المعتكفون
ويصلي المصلون متجهين إليه ، ويحج الحجاج مقبلين من كل فج عميق .

فهذا عمل (صالح) جليل خصّه الله به وبولده إسماعيل .
ومن أعماله (الصالحة) المشهودة أيضاً قيامه على أكمل وجه بتنفيذ
ما رآه في المنام من ذبح ابنه إسماعيل ، فقد رأى أن تلك الرؤيا أمر حتمي

من الله بذبحه ، فأطاع الله مضحياً بأعزّ مخلوق لديه . وهو عمل (صالح) تجلى فيه (الصبر) الرائع أيضاً ، إلى جانب (الإخلاص) لله . وقد رحمه الله ، وكافأه على حسن طاعته له بجعل الكبش فداء لإسماعيل .

٦ - الخصام بين أهل النار

﴿ هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَفْتَحَةٌ لَهُمُ
الْأَبْوَابُ . مُتَكِّئِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ . وَعِنْدَهُمْ
قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَمْرَأَتٌ . هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ . إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا
مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ . هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ . جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَبِئْسَ
المهاد . هَذَا فَلْيَذوقوه حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ . وَآخِرُ مَنْ شَكَلِهِ أَزْوَاجٌ . هَذَا فَوْجٌ
مَقْتَحَمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ . قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ
أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ . قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا
ضِعْفًا فِي النَّارِ . وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ .
أَتَّخَذْنَاهُمْ سَخْرِيًّا ، أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ . إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ
النَّارِ ﴾ .

إن الخصام صفة كامنة في نفس الإنسان بسبب طبيعته المتناقضتين
الطينية والروحية . ويقضي الإنسان عمره وهو في خصام دائم بينه وبين
نفسه ، وبينه وبين الآخرين . فالمؤمن يخاصم نفسه إذا أخطأ وانحرف

عن صراط الله ، والكافر يخاصم نفسه إذا أخطأ ففوت على نفسه ربحاً دنيوياً حراماً أو متعة عاجلة .

والمؤمن يخاصم الكفار ويحاربهم بلسانه ويده إذا طغوا وبلغوا ، وقد يخاصم أحياناً أفراد أسرته - كما خاصم أيوب زوجته - وجيرانه . كما أن الكفار تنشأ بينهم خصومات مريرة تدور حول المصالح الدنيوية أو الأهواء الشيطانية .

غير أن المؤمن يمشي على صراط واضح ينتهي بهدف محدد ، هو كسب رضوان الله ، وهو لذلك يفتح قلبه وسمعه وبصره لأوامر الله ، كما يُغلق (يقصُر) نفسه وسمعه وبصره وجوارحه عما نهى الله عنه ، ويحفظ نفسه متوازنةً مستقرّةً بين إيجابية الأوامر وسلبية النواهي ، فلا يصل إلى نهاية حياته الدنيا (مقبلاً على الآخرة) إلا وقد اطمأنت نفسه وانتهى (الخصام) في داخل نفسه ، وحل السلام مكانه في نفوس المؤمنين وفيما بينهم في دار السلام . قال تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر ٤٧] .

ونحن نعلم أن الجزاء يكون غالباً من جنس العمل (على مبدأ العين بالعين والسن بالسن) ، لذلك فإنّ المؤمنين الذين (فتحوا) أنفسهم وأسماعهم وأبصارهم لأوامر الله المنزلة في صراطه المستقيم ، يجازيهم الله بأن (يفتح) لهم أبواب جنته (مفتحةً لهم الأبواب) . وكما أغلقوا أنفسهم عن نواهي الله ومحارمه ، فإنه يجازيهم بحور من الجنة قد أغلقن

أبصارهن وقصرنها عن غير أزواجهن : ﴿ وعندهم قاصرات الطرف
أتراب ﴾ .

وكما جعلوا أنفسهم متوازنة مستقرة على صراط الله بين أوامره
ونواهيه ، فإن الله يجازيهم بالاستقرار والتوازن في معيشتهم الآخروية :
﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ ، والإتكاء هو وضع الراحة والاستقرار
والأمن والسلام .

وأما الكافرون الذين لم يعملوا على توازن أنفسهم واستقرارها باتباع
أوامر الله واجتناب نواهيه ، وانحرفوا عن صراطه المستقيم ، فإن الخصام
لا يزول من داخل أنفسهم ، كما لا يزول الخصام ولا العداوة فيما بينهم :
﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ [الزخرف ٦٧] .

ولهذا نجد سورة ص قد أوردت حواراً خصامياً بين أهل النار في
مشهد حي من مشاهد يوم القيامة . فهم عندما يُساقون إلى جهنم
ويدخلونها يتبادلون عبارات التحقير الحاقدة : ﴿ هذا فوجٌ مقتحمٌ معكم
لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار . قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ .

ويبلغ بهم الحقد أن يتمنى بعضهم لبعض العذاب المضاعف :
﴿ قالوا ربنا منْ قَدَّمَ لنا هذا فزدهُ عذاباً ضعفاً في النار ﴾ .

إن يوم القيامة هو (يوم الفصل) كما سمته سور قرآنية عديدة ، لأنه
هو اليوم الذي يفصل الله فيه بين المؤمنين والكافرين فصلاً قضائياً

جزائياً ، فيعطي لكل ذي حق حقه ، كما يفصل بينهما فصلاً مكانياً ،
فيجعل المؤمنين في دار النعيم والكافرين في الجحيم .
غير أنه ليس هناك (فصل) في الخصام بين الكافرين أنفسهم ، بل
يستمر خصامهم إلى ما لا نهاية له من الأحقاب .

٧ - خصام الكفار لربهم

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ . قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ
مُعْرِضُونَ ﴾ .

إن هذا الجزء من السورة يكشف للكافرين النقاب عن خصمهم
الحقيقي الذي يخاصمونه . إنهم يعتقدون أنهم يخاصمون محمداً ﷺ
وصحبه ، ولكن محمداً عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم ليس إلا
(منذراً) كما تسميه السورة ، وليس إلا مبلغاً لكلام الله ، فالكفار إذن
يخاصمون الله الذي أرسله .

فهل يعرف الكفار صفات هذا الخصم الذي يخاصمون ؟
إنه « القهار » الذي يقهر خصومه قهراً حاسماً وصاعقاً . وهو
« العزيز » الذي ينصر أوليائه على أعدائه وينتقم لهم منهم . وهو وحده
﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما ﴾ المسيطر عليهما المالك لما فيهما من
كائنات ، فخصومه جميعاً ملك يديه .

وهو « الغفار » الذي يجهل خصومه ، فلا يعاقبهم عقاباً سريعاً ، بل يتركهم يتأملون ويفكرون ، فلعلهم يرجعون عن خصومتهم لربهم ولصراطه المستقيم ، فيغفر لهم ويتوب عليهم .

٨ - الخصومات المتشابهة

﴿ ما كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِنَّ يَوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ؟ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ : خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ . قَالَ : فَبِعِزَّتِكَ لأُعَوِّبُهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . قَالَ : فَالْحَقُّ ، وَالْحَقُّ أَقُولُ . لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ . إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ .

في هذا الجزء الختامي من السورة نجد عرضاً لخصومات متشابهة

أشرت إلى بعضها سابقاً . وهذه الخصومات هي : (١) الخصام بين الله وإبليس .

(٢) الخصام بين الملائكة وإبليس . (٣) الخصام بين آدم وإبليس .

(٤) الخصام بين آدم وربه . (٥) الخصام بين آدم ونفسه .

(١) - الخصام بين الله وإبليس :

إن (الصراط المستقيم) هو ما يأمر الله أحداً من خلقه بفعله . وهنا أمر الله الملائكة والأعلى ، وهم الملائكة وإبليس ، بالسجود لآدم بعد أن سواه ونفخ فيه من روحه . فهذا الأمر بالسجود لآدم هو من صراط الله المستقيم الذي يجب على عباده سلوكه خاضعين مستسلمين . وقد أطاع الملائكة أمر ربهم فسجدوا لآدم . وأما إبليس فقد امتنع عن السجود له عاصياً ربه ، فكان بذلك (مخاصماً) لربه .

ونجد هنا أيضاً (خصاماً) بمعناه الأصيل ، وهو (الجدال) أو الحوار

بين الله تعالى وإبليس ، وقد دار الجدال بينهما كما يلي :

الله تعالى - يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟ أستكبرت

أم كنت من العالين ؟

إبليس - أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين .

الله تعالى - فاخرج منها ، فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم

الدين

إبليس - رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ .

الله تعالى - فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ .

إبليس - فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ .

الله تعالى - فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ : لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ

أَجْمَعِينَ .

(٢) - الخصام بين الملائكة وإبليس :

لما كان الملائكة مطيعين لربهم بفطرتهم ، وكان الشيطان عاصياً له تعالى ، فلا بدّ أن يكون هناك (خصام) بين الملائكة الذين يتبعون (الصراط) والشيطان المنحرف عنه . وقد ذكرت السورة هذا الخصام بالاسم إذ افتتحته بقولها : ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ . والملأ الأعلى هم الملائكة وإبليس الذي كان ذا مقام رفيع قبل خلق آدم ، وكان يسمّى - فيما يقال - « طاووس الملائكة » .

وتجلى هذا (الخصام) عندما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا ورفض إبليس السجود ، وهو خصام عملي لم يخالطه جدال أو حوار .

وتعرض سور أخرى من القرآن تفاصيل أخرى عن هذا الخصام بين الملائكة والشياطين . فالملائكة يريدون الخير والهدى للناس ويدعون لهم بالمغفرة ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ

كُلِّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ
الْجَحِيمِ ﴿ غافر ٧ ﴾ . وأما الشياطين فيريدون الشر والغواية والضلال
للناس ، فقد قال إبليس في حوارهِ السابق ﴿ لأغوينهم أجمعين ﴾ .
ومن أمثلة الخصام بين الملائكة والشياطين ، أن الملائكة تحارب مع
المؤمنين عند قتالهم للكفار ، بينما تعين الشياطين الكفار بما تبينه لهم من
خطط حربية مأكرة .

ومن أمثله أيضاً قيام جبريل عليه السلام وجنده من الملائكة السفرة
الكرام البررة بإنزال القرآن الكريم وحيّاً على رسوله محمد ﷺ ، ومحاولة
الشياطين صد الناس عنه بتشكيكهم فيه . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ
لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾
[الأنعام ١٢١] .

(٣) - الخصام بين آدم وإبليس :

إن بين آدم وإبليس تاريخاً حافلاً من الخصام والعداوة ، افتتحه
إبليس برفضه أمر الله بالسجود لآدم حسداً منه وغيره وتكبراً عليه .
واستمر إبليس في عداوته لآدم فوسوس له بالأكل من الشجرة المحرمة
عليه في الجنة ، ونجح في خطته الشريرة واستجاب له آدم ، فأخرجه الله
من الجنة .

واستمر خصام إبليس لآدم حتى بعد نزوله من الجنة ، فجعل يعمل

هو وذريته على إضلال بني آدم وإدخالهم النار ، مستعملين كل وسائل الجدل (الخصام) لإغوائهم بزخرف القول . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زخرفَ الْقَوْلِ غروراً ﴾ [الأنعام ١١٢] .

وفي سورة ص قال إبليس : ﴿ فبِعزَّتِكَ لأغوينهم أجمعين ﴾ . وهذا الخصام مستمرّ بين الشياطين والبشر إلى يوم القيامة لا يهدأ أبداً . وهو يتجلى في تحريض الشيطان للناس على عصيان الله وعلى الإضرار بأنفسهم بارتكاب الذنوب وتعاطي المخدرات والخمور وارتكاب فواحش الشذوذ الجنسي التي تسبب مرض الإيدز .

وقد أشارت سورة ص إلى أن الإنسان يمكنه - إذا خلصت نيته وصلاح عمله - أن يخضع الشياطين لإرادته ، فرمزت إلى ذلك رمزاً بذكرها خضوع الشياطين لسليمان . فالشيطان أضعف من البشر . قال تعالى : ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ [النساء ٧٦] .

الخصام بين الله تعالى وآدم :

لقد أكرم الله آدم إكراماً عظيماً حسده عليه إبليس . فقد علّمه علوماً فاقت علوم الملائكة ، وأمر الملائكة وإبليس بالسجود له ، وأدخله الجنة يتمتع بخيراتها ، ولم يمنعه إلا من شجرة واحدة حذّره من أكلها ، كما حذّره من خصومة إبليس له . وقد جرى (حوار) بين الله تعالى وآدم ،

أوضحتها سور قرآنية أخرى ، بدأه الله بقوله : ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ
وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
الظَّالِمِينَ ﴾ [أعراف ١٩] وقوله : ﴿ يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ
فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى . إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَأَنَّكَ
لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ [طه ١١٩] .

وقد خاصم آدم ربه إذ عصى أمره فأكل من الشجرة المحرمة . وهذا
العصيان هو خروج عن (صراط) الله المستقيم الذي يتضمن أوامره
ونواهيه ، وهو تحقيق لأمانى إبليس الذي أقسم قائلاً : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي
لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾
[الأعراف ١٧] .

وبعد عصيان آدم لربه جرى بينهما الحوار (الجدل) التالي :
الله تعالى - ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكم إن الشيطان لكما عدو
مبين ؟

آدم وزوجه - ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من
الخاسرين .

الله تعالى - اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع
إلى حين . (الأنعام ٢٤) .

وفي هذا الخصام الذي جرى بين الله تعالى وآدم ، خرج آدم عن

(الصراط) ، وخانه (الصبر) ، فلم يصبر عن الشجرة ، وكان عمله هذا غير (صالح) ، ولم يكن في عصيانه لربه (إخلاص) ، بل شاب إيمانه بربه طاعة للشيطان ولشهوات النفس .

(٥) - الخصام بين آدم ونفسه :

وهذا الخصام هو أصل جميع الخصومات التي يعاني منها البشر ، كالخصام بين المؤمنين والكافرين ، والخصام بين أعضاء الأسرة الواحدة (كما حدث في قصة الأخوين صاحبي النعاج ، وكما حدث في خصام أيوب مع زوجته) .

وأصل هذا الخصام أن طبيعة آدم مركبة من عنصرين متضادين متخاصمين ، هما الطين والروح ، كما تبين سورة ص .

أ - الطبيعة الطينية النارية للإنسان :

ورد في الكتاب العزيز أن الإنسان مخلوق من تراب ، وأنه مخلوق من طين ، وأنه مخلوق من ماء ، أو من حمأ مسنون ، أو من صلصال كالفخار ، ولا تعارض بين هذه الأقوال ، فالإنسان مركب من ثلاثة عناصر أصلية هي : (التراب والماء والنار) . فقد تذكر إحدى السور بعض هذه العناصر ، وقد تذكرها سورة أخرى كلها مركبة ، أو تذكرها مفردة أو مركبة .

فالطين هو : (تراب وماء) ، وتشير عبارة (صلصال كالفخار)

الواردة في سورة الرحمن إلى وجود عنصر (النار) في الإنسان . فإنّ
الفخار - كما تقول معاجم اللغة - هو : (الطين المشوي بالنار) .

وهذا ما تؤيده الوقائع المحسوسة . فالإنسان يتركب من نفس عناصر
التراب كالكربون والأكسجين والصوديوم ، كما يتبين من التحاليل
الكيمائية الحديثة لجسم الإنسان .

كما نعلم أن طبيعة الإنسان النارية تتجلى في درجة حرارته الثابتة ،
وهي ٣٧° م المعروفة التي يدلّ ارتفاعها عن هذا الحدّ أو انخفاضها عنه
على مرض الإنسان .

وهذه النار التي تدخل في تركيب الإنسان تُعدّ ضئيلة بالنسبة إلى النار
الصّرف التي خُلِقَ منها الشيطان : ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ .
غير أن لنار الإنسان دوراً كبيراً وأساسياً في حياته ، فلا حياة بلا حرارة .

تأثيرات العنصر الناري في نفس الإنسان :

١ - النار والشهوات : إن لوجود العنصر الناري في جسم
الإنسان آثار عديدة في نفسه . فالحرارة المتولدة عن الأغذية تثير في نفسه
الشهوات وتقوّيها . ومن هنا ورد في الحديث المتفق عليه قوله ﷺ : « إنّ
الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » والشيطان هنا يتضمن معنى النار
التي خلقه الله منها . وهذه النار أو الحرارة تتولد من احتراق الأغذية
المهضومة التي يجري بها الدم في جميع أنحاء الجسم .

ومن هنا أيضاً ، أوصى الرسول عليه السلام من لا يستطيع الزواج من الشباب بالصوم ، لأن الإقلال من الطعام يخفف من الشهوات .

٢ - النار والطمع والنهم : إن من طبيعة النار إلتهايم كل ما تصل إليه من وقود . فإن أصابت النار طرف قطعة من الخشب ، امتدت إلى سائرها و التهمتھا ، وإذا أصابت شجرة في غابة ، امتدت يميناً وشمالاً وفي جميع الإتجاهات ، و التهمت الغابة بأكملها .

ففي النار صفة الجشع والطمع التي تنتقل إلى النفس المصنوعة منها . فهذا إبليس - المصنوع من النار - يحاول أن يلتهم بنار عدوانه وإغوائه البشر جميعهم : ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ . ولولا حاجز (الإخلاص) المضاد للنار الشيطانية والذي يتمتع به سالكو الصراط المستقيم من البشر ، لما نجا أحد الناس من نار الشيطان : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

وقد بين الله صفة الجشع والنهم التي في النار في سورة (ق) أبلغ بيان وأروع ، فقال : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ : هَلْ امتلأتِ ؟ فتقول : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ ﴾ .

ويتجلى أثر هذا الطمع (الناري الأصل) في الإنسان في سورة ص في قصة داود عليه السلام حيث لم يقنع صاحب النعجات التسع والتسعين بل طمع في نعجة أخيه الوحيدة .

ويتجلى الطمع أيضاً في قصة أبينا آدم عليه السلام ، الذي لم يكتفِ
بثمار الجنة الغزيرة ، بل طمع في الأكل من الشجرة المحرمة .

٣ - النار والتكبر : إن من طبيعة النار أيضاً التعالي والارتفاع
والنزوع إلى الصعود إذا وجدت الوقود الغزير ، فهي حينئذٍ تبلغ بلهيبها
عنان السماء .

ويظهر هذا الأثر الناري الاستعلائي الاستكباري في نفس إبليس ،
إذ تكبر عن السجود لآدم كما ورد في سورة ص . وقد امتنع عن السجود
مدعياً أنه أفضل من آدم متجاهلاً أن آدم يضم إلى طبيعته الطينية طبيعة
روحانية سامية .

وتتجلى صفة التكبر هذه في كفار قريش ، الذين وصفتهم السورة في
مطلعها فقالت : ﴿ بل الذين كفروا في عزةٍ وشقاقٍ ﴾ . والعزة هنا تفيد
معنى التكبر ، فهم يتكبرون على رسول الله إذ يرفضون أن يكونوا تابعين
له . كما كانوا يستكبرون على أتباعه من المؤمنين ويعدونهم من الأشرار
ويسخرون منهم ، وذلك طبقاً لما أوردته سورة ص : ﴿ ما لنا لا نرى
رجالاً كنا نعدّهم من الأشرار اتخذناهم سخرياً ﴾ .

٤ - النار والاضطراب والخصام : من صفات النار أنها
مضطربة وتسبب الاضطراب والاهتزاز ، ألا ترى إلى الماء كيف يفور
ويغلي ويهتز عندما تؤثر فيه النار ؟ ذلك أن الطاقة الحرارية تتحول بسهولة

إلى طاقة حركية . وما حدوث الاضطرابات الجوية إلا نتيجة لحرارة الشمس التي تجعل الهواء يتمدد في المناطق الحارة ، فيتدفق الهواء البارد من المناطق الباردة إلى الحارة مسبباً الرياح أو الأعاصير .

وقد ذكر الله صفة النار الاضطرابية الفورانية هذه بقوله : ﴿ إِذَا أَلْقَا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقاً وَهِيَ تَفور ، تكادُ تَميزُ من الغيظ ﴾ [الملك ٨] .
ويتنقل هذا الأثر الناري إلى نفس الإنسان فيجعل البشر مضطربين ، مولدًا بينهم العداوة و (الخصام) الذي عرضت سورة ص فلسفته وبينت جذوره ومظاهره بين البشر وغيرهم من الكائنات .

أثر الطبيعة الطينية في نفس الإنسان :

إن للطين صفتين أساسيتين هما صفتا : التماسك والتثاقل . فالتراب يكون بغير الماء ذرات مفتتة غير متماسكة ، فيصبح بالماء طيناً متماسكاً ، ويزداد تماسكه إذا شوي بالنار ، التي هي إحدى عناصر جسم الإنسان فيصبح فخاراً متيناً .

وقد انتقلت هذه الطبيعة الطينية الفخارية إلى النفس البشرية ، فجعلتها تتماسك وتثبت أمام الشدائد ، وهذا الثبات النفسي هو (الصبر) الذي ذكرته سورة ص مراراً . فقد أوصى الله رسوله بالصبر قائلاً : ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ ، كما أوصى الكفار بعضهم بعضاً بالصبر فقالوا : ﴿ امشوا واصبروا على آهتكم ﴾ وأبرزت السورة أيضاً صبر أيوب عليه السلام .

وأما الصفة الطينية الثانية ، فهي الثقائل ، وهي ناتجة عن نزوع الطين إلى السقوط إلى الأسفل بفعل الجاذبية الأرضية . وقد انتقلت هذه الصفة إلى النفس البشرية ، فجعلتها تتأثر عن بعض الأعمال الصالحة كالصلاة والجهاد . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ؟ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ ﴾ [التوبة ٣٨] .

وقد نجد إشارة إلى صفة الثقائل في سورة ص ، وذلك في اشتغال سليمان عليه السلام عن صلاة العصر بسبب نظره إلى الخيل المعروضة عليه .

أثر الطبيعة الروحية في نفس الإنسان :

إن الطبيعة الروحية تجعل الإنسان متعلقاً بربه العظيم خاشعاً له . ويتجلى ذلك في تسييح داود لربه تسييحاً نابعاً من أعماق قلبه ، حتى إن الجبال والطير كانت تتجاوب مع تسييحه . تقول سورة ص : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَابٌ ﴾ .

وهذه الطبيعة الروحية هي التي تجعل الإنسان ذا القلب الحي يلوم نفسه ويستغفر ربه إذا جرته النوازع الطينية النارية من أهواء وشهوات وتثاقل إلى الخروج عن حد الاعتدال والتوسط التي يقيده بها الصراط المستقيم . ومثال ذلك استغفار داود وسليمان حينما وقعا في بعض الأخطاء

الرمزية ، فوصفت السورة كلاً منها كما وصفت أيوب بأنه (أواب) أي دائم الرجوع إلى الله ، وهي من صفات الطبيعة الروحية الكامنة في نفس الإنسان .

ومن الصفات الروحية التي بيّنتها السورة عمل الخير لوجه الله تعالى ، دون انتظار أجر مادّي من وراء العمل ، وكذلك عدم تكلف الإنسان في سلوكه ، وصدور أعماله عن فطرته البسيطة البريئة . وقد وردت الصفتان في ختام السورة في الآية : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ .

الخصام الكوني العام

تناولتُ في دراستي السابقة ظاهرة الخصام بين البشر ، التي فصلتها سورة ص أبداع تفصيل . غير أن السورة ألمحت إلى خصام كوني عام إذ قالت : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا . ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .

فإن في السماوات والأرض قوى عديدة متخاصمة ، لو تُركت وشأنها ، أي لو لم تتدخل الإرادة الإلهية فيما بينها وتلزمها حدود الإتنان ، لدمّرت السماء والأرض . لكن الله لم يخلق السماء والأرض باطلاً ، ولم يتركها نهياً للتدمير والفساد الذي يسببه الخصام العشوائي الذي يتوهمه الكفار سائداً في الكون ، بل خلقها بالحق .

نعم هناك قوى متخاصمة متعارضة في الكون ، لكنها تخضع للإرادة الإلهية التي تهدف إلى حفظ مصلحة الناس وحياتهم ، وإلى إظهار الكون بمظهر الجمال .

والقوى في الكون كثيرة جداً ، وهي لا تسير جميعاً في اتجاه واحد ، بل لا بدّ أن تتعارض قوتان أو أكثر منها . فإمّا تتسلط على شيء فيسير متوازناً سالماً ، وإما أن يسير مختلّ التوازن ، أو يتوقف ، أو يتلاشى . وأضرب مثلاً بالسيارة التي يقودها سائقها على طريق معبّد تحفّ به أرض وعرة ووديان سحيقة . فالسيارة تخضع لعدد من القوى ، منها قوة الجاذبية الأرضية التي تشدّها إلى الأسفل ، وقوة المحرك التي تدفعها إلى الأمام ، وقوة احتكاك عجلاتها بالأرض التي تعيق حركتها إلى الأمام ، وقوة مقاومة الهواء المشابهة لقوة الاحتكاك .

فهذه عدة قوى تتخاصم في السيارة وتتصارع في توجيهها . وتكون نتيجة هذا الخصام إمّا أن تسير السيارة « متوازنة » على الطريق المعبّد ، وحينئذ تسلم من العطب وتصل إلى هدفها المنشود ، وإما أن تسير مختلة التوازن فتخرج عن الطريق وتهوي إلى الهلاك .

إن تنوّع هذه القوى وتعدّدها وتعارضها وتخاصمها هو مظهر من مظاهر القدرة الإلهية . فقد سلّط الله القوى المتعددة على الكون بما فيه من جمادات وأحياء ، فسار الكون منذ ملايين السنين متوازناً مقيداً بطريق أو

(صراط) خاص ، خاضعاً لسُنن وقوانين ثابتة لن تجد لها تديلاً ولا تحويلاً .

فالحياة على هذه الأرض مزدهرة محفوظة منذ آجال بعيدة ، على الرغم من وقوعها بين نارين هائلتين ، إحداهما : نار الشمس التي تبلغ مليون درجة مئوية ، واشعاعاتها المدمرة الناشئة عن الانفجارات النووية المخيفة التي لا تنقطع زمجرتها . وثانيتهما : النار الملتهبة التي لا تنفك تزجر في باطن الأرض ، متجليةً أحياناً في الزلازل المدمرة والبراكين المروعة .

والأرض تدور حول الشمس منذ ملايين السنين ، تتخاصم فيها قوتان . قوة جاذبية الشمس لها ، التي تشدّها إليها ، والقوة النابذة (الطاردة) التي تعمل على إبعادها عنها . وتتوازن هاتان القوتان المتخاصمتان بحيث تجعلان الأرض تسير في فلك محدد ، يحفظ الحياة مزدهرة على الأرض ، فلا هي تقترب اقتراباً خطراً من الشمس فيحترق أحيائها بأشعتها ، ولا تبتعد عنها ابتعاداً خطراً ، فيهلك أحيائها من شدة البرد .

وتتخاصم الحرارة والبرودة على سطح الأرض بسبب تعاقب الليل والنهار والفصول الأربعة ، وبسبب البعد والقرب من خط الاستواء ، غير أن هذا الخصام ينتج عنه توازن حيوي يؤدي إلى سقوط الأمطار وغو النباتات والثمار .

وتتخصص أنواع الأحياء ، فبعضها يفترس الآخر ، فمن الحيوانات ما يأكل النباتات ، ومن الحيوانات ما يأكل الحيوانات الأخرى ، لكن هناك توازناً بين هذه الأنواع بحيث لا يطغى بعضها على بعض . كل ذلك يفيد أن هذا الكون ذا القوى (المتخاصمة) يسير متوازناً ، لأن هناك إرادة إلهية هادفة أعطت كل قوة حقها المقدر لها فتجتمع متناسقة مع القوى الأخرى . فهو كون مخلوق بالحق لا بالباطل ، وبالإرادة المبصرة لا بالصدفة العمياء ، وبالقوانين الضابطة لا بالفوضى السائبة : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .

فالكفار يحاولون إغماض أعينهم عن التدبير والحكمة البارعة المتجليين في الكون . وقد أشارت سور كثيرة أخرى إلى هذا التوازن والتلاؤم في الكون معبرة عنه بكلمة « الحق » ، ونافية أن يكون خلق هذا الكون « باطلاً » بلا هدف ولا حكمة . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الروم ٨] ، وقوله : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾ [آل عمران ١٩١] .

وهنا لا بدّ أن نلاحظ أن (الصراط المستقيم) نوعان : .
 (أولهما) - الصراط المستقيم الحتمي : الذي أجرى الله عليه الكائنات غير المسؤولة من أجرام سماوية ونباتات وحيوانات ، فهي تجري

وتتحرك وفق قوانين ثابتة لا تحيد عنها أبداً ولا خيار لها فيها . وذلك كما في الآيات : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود ٥٦] ، ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس ٤٠] ، ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ [النحل ٦٩] .

فالأجرام السماوية والدواب جميعها تسير في حركاتها وشؤون حياتها على صراط مستقيم حتمي ، لا تملك الخروج عنه ، وذلك كمثال النحلة الواردة في الآية السابقة ، فهي تسلك سُبُل ربها (أي صراط الله) التي رسمها لها وقيدتها بها .

(النوع الثاني) من الصراط المستقيم - هو المنهج الذي كلف الله به الناس في كتبه المنزلة على رسله ، وحملهم مسؤولية تنفيذه ، فهو صراط مستقيم طوعي اختياري ، من سلكه دخل في رضوان الله وجنته ، ومن تنكّب عنه دخل في غضب الله وناره .

* * *

هذه هي سورة ص ، ذات الموضوع الواحد ،

سورة الخصام بين القوى الكونية الذي ينتهي بها إلى السير على صراط الله بتوازن ووثام ، يدلّان على الحكمة الإلهية البالغة ،

سورة الخصام البشري ، بين جماعات الناس وأفرادهم ، في أعضاء
الأسرة الواحدة ، وبين الإنسان ونفسه ، وسببه نزاع حول صراط الله ،
سورة الخصام بين الإنسان والشيطان ،
سورة الصراط الإلهي الذي ينتهي بسالكة إلى الخلاص من الخصام ،
والعيش الأبدي في دار السلام .

* * * *

سورة ق

ق والقرآن المجيد.... (إلى آخر السورة) .

سورة ق . . .

سورة الحق والقلب

إنّ لهذه السورة موضوعاً واحداً تدور حوله . وقد استرشدت - من أجل معرفة هذا الموضوع - بحرف القاف الذي يتصدر السورة والذي سُميت السورة باسمه . فنظرتُ في كلماتها المهمة التي تحوي حرف القاف ، وهي : (القرآن ، الحق ، القلب ، فوق ، قبل ، الخلق ، الإلقاء ، الرزق ، القول ، تقديم الوعيد ، قعيد ، رقيب ، سائق ، قرين ، التشقق ، المتقون) .

وبعد التفكير في آيات السورة وفي هذه الكلمات ، وجدت أن موضوع السورة هو : (الحق والقلب) .

وقد وردت كلمة الحق في ثلاث آيات من السورة هي : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ ، ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ ، ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ﴾ . كما وردت كلمة القلب في آيتين من السورة هما : ﴿ مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ الْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ .

لقد خلق الله قلب الإنسان مستعداً استعداداً فطرياً لمعرفة الحق وقبوله والتأثر به تأثراً يقوده إلى سعادته الأبدية . وما الإنسان إلا (قلب)

قد يكون حياً سميعاً بصيراً ، فَيُذْرِكُ الحق بسمعه وبصره ، أي يدرك حقائق الأمور ، وعلى رأسها الحق الأوّل ، وهو الله تعالى ، فيحبه لما يرى في صنعته من آثار الجمال ومظاهره ، ويخشاه لما يرى في مخلوقاته من مظاهر عظمتة وجلاله وقوته وجبروته .

وكل ذلك يدفعه إلى طاعته واتباعه غضبه وخشيته تعالى .

وقد يكون القلب ميتاً فلا يسمع ولا يبصر ولا يدرك حقائق الأمور ، وعلى رأسها الله (الحق) الأعظم ، فيقضي عمره كافراً بالله لاختلاط حقائق الأمور على قلبه المريض .

وقد ورد في السورة تفصيل وافٍ لمعنى الحق ، الذي يتم الوصول إلى معرفته بأمرين :

١- القرآن الكريم : وقد ورد ذكره في أول السورة في الآية : ﴿ ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ﴾ ، وفي آخرها في الآية : ﴿ فَذَكَّرَ بِالْقُرْآنِ مِنْ يَخَافُ وَعِيدَ ﴾ . ويلاحظ أن كلمة (القرآن) تحوي حرف القاف .

ب- النظر إلى الكون وإجالة العقل فيه وإلى ما فيه من جمال وخير وجلال وتوازن وقدرة .

الحقّ وأركان الإيمان الستة :

تقول السورة عن الكفار : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ . فما هو الحق ؟ أي ، ما هي الحقائق التي كذب بها الكافرون ، والتي تصدّت

السورة لإثباتها وتفصيل دقائقها ، وجعلت منها موضوعها الوحيد الذي تدور حوله آياتها ؟

إن الحق هو أركان الإيمان الستة ، التي ذكرها رسول الله ﷺ رداً على سؤال جبريل عليه السلام : « فأخبرني عن الإيمان » ، فأجابه الرسول : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » (مشكاة المصابيح - ٢ - رواه مسلم) .

ويؤيد ذلك ما ورد في الحديث الشريف المتفق عليه ، الذي دعا فيه الرسول ربه فقال : « أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق وقولك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد ﷺ حق والساعة حق) ، وهو يكاد يشمل أركان الإيمان الستة جميعاً .

وهناك آيات قرآنية من سور أخرى تصف أركان الإيمان الستة بأنها حق أو تقرنها بالحق . فهناك آية في سورة طه تصف الله بأنه الحق فتقول : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ . وهناك آية في سورة عمّ تصف اليوم الآخر بأنه الحق فتقول : ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مآبًا ﴾ . وأما الكتب والرسول ، فقد اقترن ذكرهما بالحق في قوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ [آل عمران ٢] ، وقوله : ﴿ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف ٤٢] . وأما الملائكة فقد اقترن ذكرهم بالحق في الآية : ﴿ مَا نَنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الحجر ٨] . وأما قضاء الله وقدره فهو حق : ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ [غافر ٢٠] .

ولأذكر الآن كيف تضمنت سورة ق شرح هذه (الحقوق) الستة ،
ثم كيف يكون وقعها في (قلوب) البشر .

١ - الحق الأول : الله جلّ جلاله

ذكرت السورة في مطلعها الدلائل اليقينية التي يستدل بها الإنسان على
ربه ، وذلك بنظره في الكون نظرةً (فوقية) : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ
فَوْقَهُمْ ﴾ . فالسما التي فوقنا بناء متماسك ، نجومه شمس هائلة
الحجم ، أو كواكب تابعة للشمس أو أقمار تابعة للكواكب ، وكل منها
يسير في فلك خاص به لا يتخطاه ، ويتحرك حسب مواعيد دقيقة
التوقيت ، متوازناً متناسقاً مع غيره من الأجرام .

فلا صدفة عمياء تحكمه ، ولا فوضى صماء تقوده .

وهو بناء جميل : ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ ، فالجمال
يملاً أرجاء الكون ، سماءه وأرضه : ففي السماء النجوم ذات الإشعاعات
المتألقة الزاهرة ، والشمس ذات القرص الذهبي الزاهي ، والقمر ذو
النور الفضي الشاعري .

وفي الأرض جمال النباتات بأوراقها الخضراء وأزهارها رائحة الألوان
والأشكال ، وروائحها الزكية المنعشة : ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
بِجْءٍ ﴾ .

إن الجمال يدل على الله : فلا يمكن للصدفة العمياء أن تصنع شكلاً

جَمِلاً . فهل يمكن لرياح العاصفة الهوجاء التي تهب على رمال الصحراء ، أن تقيم بالصدفة من تلك الرمال صرحاً هندسياً جَمِلاً متناسق الشكل والأبعاد ؟

إن الرياح العاصفة الهوجاء لا تصنع إلا الخراب والقبح وإفساد البناء الجميل الذي قد صنعه إنسان عاقل ، فهي تغرق السفن الجميلة ، وتهدم الأبنية المشيدة ، وتقتلع الأشجار المغروسة .

أما الكون ذو البناء الجميل ، فلا بدّ له من بانٍ يشيده على قواعد جمالية .

وليس الجمال وحده هو الذي يدل على الله ، فهناك حفظ مصلحة البشر وخيرهم .

إن الله هو الذي يحفظ حياة البشر الفردية والجماعية . وقد هيأ لهم الأسباب التي تحفظهم ونظرة (فوقية) أخرى إلى السماء تؤكّد لنا ذلك : فإن الغيوم التي فوقنا هي مصدر رزق الأحياء ، وكذلك أشجار النخيل العالية (الباسقة) هي من مصادر الرزق الغنيّة . تقول سورة ق : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ . وانظر كيف لفتت الآية الأنظار إلى (الطلع النضيد) . وهو موطن من مواطن الصنعة الجميلة التي لا يمكن أن يصنعها إلا إله قدير حكيم . فإن تصفيف حبات الفواكه وتراكبها بعضها فوق بعض ، لأمر يثير

الإعجاب والدهشة . انظر إلى حبات العنب في عنقودها ، أو حبات الرمان ، أو حبات الذرة ، أفلا ترى فيها التناسق والجمال والصنعة المتقنة؟! .

وليس الجمال وحفظ الحياة وحدهما يدلان على الله .

بل هناك (التوازن) : ونظرة (فوقية) أخرى إلى الجبال العالية تؤكد ذلك : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ .

فإن باطن الأرض الملتهب المتفجر ينزح إلى تمزيق القشرة الأرضية وتخريب ما عليها من أبنية ومزروعات وأحياء ، كما يظهر لنا أحياناً في ثوران البراكين والزلازل المدمرة .

لقد (ألقى) الله الجبال الراسية على الأرض لكي توازن بثقلها قوى الأرض الباطنية المتفجرة ، فتلجمها ، وتوقف عملها المدمر للأحياء .

وهنا لا بدّ لنا من وقفة نتأمل فيها براعة هذه الآيات في لفت نظر الإنسان العاقل إلى مواطن الاستدلال المقنعة التي تقود إلى معرفة الله :

الجمال في تنضيد حبات الثمار ، وفي إنبات النباتات البهيجة ، وفي السماء ونجومها .

وحفظ الحياة في إنزال المطر وإنبات النباتات المثمرة .

والتوازن في وضع الجبال على سطح الأرض .

وليست الأمثلة التي لفتت الآيات الأنظار إليها سوى بعض النماذج

المحدودة للاستدلال ، يمكن للمتأمل في الكون أن يجد فيه أشباهاً ونظائر لها وأمثالاً لا تحصى ، تشير إشارات واضحة إلى مظاهر الحفظ والجمال والتوازن التي تملأ الكون وتدل على الله الحق .

وهناك قدرة الله على (الخلق) التي كررتها السورة في الآيات : ﴿ أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ .

والخلق قدرة إلهية عجيبة ، نحس بها في أنفسنا إحساساً مباشراً . فإننا لم نخلق أنفسنا ، بل وجد كل إنسان منا نفسه مزودة بمشاعر وإحساسات ومدارك لم يضعها هو في نفسه . إنني لم أخلق في نفسي القدرة على إدراك الألوان والأشكال ، وتمييز اللون الأخضر من الأحمر من الأصفر مثلاً ، ولا القدرة على تمييز الشكل الكروي من المكعب . . . ولم أخلق في نفسي القدرة على التفكير . ولو كان إنسان يملك إيجاد هذه القدرة في نفسه لما وجدنا إنساناً غيباً واحداً . ! .

إنها قدرة الله على الخلق ، التي تشمل خلق القدرات العقلية والنفسية ، كما تشمل خلق الأجسام المادية . وهو خلق يتم أمام أعيننا ومداركنا . فالنطفة المودعة في رحم المرأة ، تكون خلية واحدة ، لا تلبث أن تنشط إلى خليتين ، ثم تنشط كل من الخليتين إلى أربع ، وهكذا حتى يتم خلق الجنين العجيب ، ذي الخلايا المنضّدة ، والأعضاء

المتناسقة ، في مراحل منتظمة تكتمل فيها أجهزته الظاهرة والباطنة ،
كالجهاز الهضمي والجهاز الدوراني والجهاز التنفسي ...

والغدد العجبية التي هي مصانع كيميائية متطورة جداً ، تُفرز من
المواد ما يدهش علماء الكيمياء والطب ، وما يعجز عن إنتاجه أعلم
علمائهم وأرقى مصانعهم .

- والسورة تؤكد أن قدرة الله على الخلق لا حدود لها ولا يصيبها التعب
ولا الوهن فتقول : ﴿ ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة
أيام وما مسنا من لغوب ﴾ أي لم يصبنا تعب . وقد زعم اليهود في كتبهم
أن الله تعالى قد تعب من خلق السماوات والأرض فاستراح في اليوم
السابع فالآية ردّ على هذا الزعم الخاطيء .

وتؤكد السورة ، رداً على من ينكرون أن الله يملك القدرة على بعث
الأموات ، أن من خلق الإنسان أول مرة يهون عليه أن يُعيد خلقه مرة
أخرى ، فتقول : ﴿ أَفَعَيِّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ
جَدِيدٍ ﴾ .

هذا ، وإنَّ خَلْقَ الإنسان ليتجلى فيه أيضاً الجمال والتوازن وحفظ خير
الناس وحياتهم ، كما يتجلى فيه علم الله وحكمته . فإن إنشاء أجهزة جسم
الإنسان قد تم بناءً على مبادئ وحقائق علمية ، لا بدّ للمنشئ من أن
يحيط بها ويكون خبيراً بها .

والعلم هو من صفات الله التي عُنيَت السورة بإبرازها . وقد ورد ذلك في الآيات : ﴿ قَدْ عَلَّمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلِمَ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ ، ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ .
والقرب ، هو أيضاً من صفات الله التي لفتت السورة الأنظار إليها فقالت : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ .

فليس الله بعيداً عنا ، كما يتوهم بعض السذج ، الذين حجبوا عن أنفسهم رؤية فعل الله في أنفسهم وفيما حولهم . إن الله قريب بقدرته وعلمه من كل إنسان . إنَّ قدرته هي التي تدفع قلبك هذا الذي في صدرك إلى النبض المستمر في كل لحظة ، ولو شاء لأوقف نبضه ، فوقفت حياتك .

وقد خصَّت الآية : ﴿ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ بالذكر ، في إشارة منها واضحة إلى الجهاز الدوراني الذي يحوي سيد أعضاء الجسم - وهو القلب - الذي يدفع بالدم وما يحوي من أغذية ضرورية إلى جميع أعضاء الجسم ، فيمدّها بسبب حياتها وهو الطاقة الحرارية والحركية .

والله تعالى (غائب) عن أبصارنا وأسماعنا المادية ، فلا يمكن أن نراه بعيوننا المادية في هذه الحياة الدنيا أبداً ، وإن كان قريباً منا ، وإن كانت عقولنا تستطيع أن تدرك وجوده تعالى إدراكاً يقينياً عن طريق تأملها في الكون .

وقد ذكرت السورة صفة (الغيبية) في الله تعالى في الآية : ﴿ مَنْ
خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ .

ومن صفات الله تعالى التي تبرزها السورة (العدل) ، فهو لا يظلم
أحداً . إنه تعالى حمل الإنسان مسؤولية عظيمة بعد أن خلقه ، لكنه
لم يكتفِ تحميله هذه المسؤولية ، بل أعلنها على السنة رسله ، وفي كتبه
المنزلة ، وعلى أفواه العلماء والوعاظ ، وبشر المؤمنين المحسنين بالجنة
ونعيمها ، وأنذر المسيئين بعذاب النار ، وقدم بالوعيد : ﴿ لا تختصموا
لديّ وقدّ قدمت إليكم بالوعيد ، ما يبدل القول لديّ وما أنا بظلامٍ
للّعيد ﴾ .

ومن عدله تعالى أنه جعل الأجيال الهالكة السابقة التي كذبت
أنبياءها ، عبرةً للأجيال اللاحقة ، التي ينبغي لها أن تنظر نظرة (قبلية)
إلى الأمم السابقة ، تقول السورة : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نوحٍ وَأَصْحَابُ
الرَّسِّ وَثَمُودَ ، وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لوطَ . وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَعا
كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴾ .

و (القول) من الصفات الإلهية التي تبرزها السورة . فالله تعالى
يقول (أي يقدر على مكاملة الناس ، بل والجمادات ، وذلك خلافاً
لما يتوهمه بعض قصار النظر من المفكرين ، الذين يظنون أن هذه المظاهر
الكونية الرائعة التي تدل - باعترافهم - على خالق عليم مبدع يسمونه
(الطبيعة) ، لا تدل على أنه قادر على الكلام ومخاطبة الناس بلغاتهم .

وقد عرضت سورة الأنعام أفكار هذه الفئة المتهافئة حيث قالت : ﴿ وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ . قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾ (٩١) .

وهل من المعقول أن يستطيع الله تعالى أن يخلق القدرة على الكلام عند البشر ، ولا يستطيع هو أن يتكلم؟! أي عقل أو أية فطرة سليمة تقبل ذلك؟! .

وقد أكدت سورة ق أن الله يتكلم ويقول القول الخثير الفصل الثابت الذي لا يتبدل ، فقالت إنه تعالى يفصل بين الخصمين يوم القيامة عندما يتهم أحدهما الآخر بأنه السبب في إضلاله ، فيسكتها الله مبطلاً حججها الواهية : ﴿ قال : لا تختصموا لديّ وقد قدّمتُ إليكم بالوعيد . ما يُبدّلُ القول لديّ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ .

كما أشارت السورة إلى أنه قادر على مكالمة الكائنات غير الحية كمثل جهنم ، ففهم قوله وتجييه : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ : هَلِ امْتَلأتِ ؟ وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟! ﴾ .

وقد ورد (القول) في السورة أيضاً مُسنداً إلى الإنسان ، إذ قالت : ﴿ ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ . وفي ذلك كشف للناس عن حقيقة خطيرة غائبة عنهم ، لا بدّ لهم من أن يحسبوا حسابها ، وهي أن كل كلمة (يقولونها) تقع تحت مراقبة شديدة يقوم بها ملكان خاصان موكلان بتسجيل أقوال الناس جميعها ، ليحاسبهم الله عليها يوم القيامة .

وهكذا نجد أن عدداً من الكلمات التي تحوي حرف القاف لها معانٍ جليلة تتعلق بالله (الحق الأول) . فنحن نستدل على الله تعالى وعلى حكمته بنظرة (فوقية) إلى السماء ، ونوقن بذلك بقدرة الله على (خلق) الأشياء وعلى (رزق) العباد ، وعلى الحفاظ على توازن الأرض بـ (إلقاء) الجبال فيها ، كما نستدل بنظرة (قبلية) إلى الأمم السابقة على قدرة الله على إهلاكها . وتؤكد السورة أيضاً من صفات الله (القرب) و (القول) ، والعدل بـ (تقديم الوعيد) أي بإنذار المسيئين بالعذاب .

٢ - الحق الثاني : الملائكة

إن الإيمان بالحق الأول (الله جل جلاله) ينبثق عنه الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر ، ذلك أن سبيل الإيمان بالله هو (العقل) الذي يُعرّف الإنسان بربه حينما يتأمل مخلوقاته . وأما الإيمان بالحقائق الأخرى فيتم بمجرد معرفة المؤمن بأن الله قد أثبتها بقوله ، فهو يعرف أن الله لا يقول إلا الحق .

ولقد ثبت وجود الملائكة في جميع الكتب السماوية التي أنزلها الله للبشر ، فلا بدّ للمؤمن أن يتقبلها ويؤمن بأنها حق دون حاجة إلى برهان .

غير أن السورة تقدم تفصيلات شيقة وخطيرة عن الملائكة الكرام ، فإنهم يرافقون الإنسان في الدنيا والآخرة ، منجزين أعمالاً كثيرة وكلهم

الله بالقيام بها .

ففي الدنيا يراقب الملائكة الناس ويسجلون لهم وعليهم أقوالهم - كما مرّ سابقاً - ويوم القيامة يسوقون الناس بعد انبعاثهم من قبورهم إلى ساحة العرض والحساب ، ويشهدون عليهم بما فعلوه في الدنيا من أعمال صالحة أو سيئة : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ .

كما أن الملائكة ينفذون الحكم الصادر على الكفار بالإلقاء في نار جهنم : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ، الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ .

وكما أن الله تعالى كائن (غيبي) لا نراه بحواسنا المادية ، فكذلك جميع أركان الإيمان كائنات (غيبية) لا يراها عامة الناس بعيونهم ولا يسمعونها بأذانهم . فنحن نؤمن بالملائكة بالغيب دون أن نراهم أو نسمعهم ، ويستثنى من ذلك الأنبياء وبعض خواصّ البشر الذين ثبتت رؤيتهم للملائكة .

وكما أن الله يتصف بـ (القرب) من الناس ، فإن سائر أركان الإيمان (قريبة) منا ، فالملائكة (قريبون) منا يحيطون بنا عن أيماننا وعن شمائلنا ، يراقبوننا ويحسون علينا أقوالنا ، وهم قرناء لنا .

وقد ذكرت السورة عدداً من الكلمات التي تحوي حرف القاف وتتعلق بالملائكة ، وهي (قعيد ، رقيب ، سائق ، قرين) .

٣ - الحق الثالث : الكتب

ذكرت السورة هذا الركن من أركان الإيمان في مطلعها، إذ ذكرت أعظم الكتب الإلهية وخاتمتها القرآن الكريم فقالت : ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ ، كما ذكرته في ختامها فقالت : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ .

ولا يخلو هذا الركن من أركان الإيمان من صفة (الغيبية) . فإن نصوص الكتب السماوية السابقة للقرآن الكريم غائبة عن معارفنا ، كما أنها لا تخلو من صفة (القرب) منا ، لأن معانيها الرئيسة قريبة منا ، لأنها محتواة في القرآن الكريم ، الذي بقي وحده - بحفظ خاص من الله - (قريباً) منا وفي متناول أيدينا .

٤ - الحق الرابع : الرسل

إن الكتب قد وصلتنا عن طريق الرسل ، وقد ذكرت سورة ق الرسل بقولها : ﴿ كَذِبَتْ قَوْمَ نوحٍ . . . وقومُ تبعٍ كل كَذَّبَ الرسلَ فحقَّ وعيدِ ﴾ .

والرسل أيضاً كائنات لها قسط من صفة (الغيبية) ، فنحن نؤمن بهم دون أن نراهم ، ويستثنى من ذلك معاصروهم الذين هم قليلون جداً بالنسبة إلى سائر الأجيال البشرية .

كما أن الرسل لا يخلون من صفة (القرب) منا ، فهم عليهم السلام قرييون منا بسيرهم وقصصهم المسطرة بأجمل أسلوب وأوقعه في القرآن الكريم ، حيث يقرأ المؤمن قصة يوسف عليه السلام مثلاً ، فيعيش معه منذ رأى منامه حين كان فتىً صغيراً يحسده إخوته على تكريم والده له ، فيكيدون له ، فيرمونه في الجبِّ ، ثم ينقذه قوم من التجار من الجب ويبيعونه إلى العزيز المصري . وبعد فرحة قارئ القصة بإنقاذ يوسف من الجب ، يعود قلبه إلى الخفقان خوفاً عليه من التهمة التي ألصقتها به امرأة العزيز زوراً وبهتاناً حين ادعت أنه حاول اغتصابها مما أدى به إلى دخول السجن .

ثم يطمئن القارئ إلى خلاص يوسف من السجن وثبوت براءته ، وتعيينه في منصب عظيم ، هو إشرافه على شؤون (خزائن الأرض) من الغلال .

ثم يفرح المؤمن القارئ بعودة يوسف وأخيه إلى أبيهما يعقوب عليه السلام ، وبالتتام شمل الأسرة ثانيةً بعد فراق طويل .

إن قصة يوسف نموذج القصص في القرآن الكريم ، التي يقرأها المؤمن فيشعر كأن الرسل يعيشون معنا وبيننا (قرييين) منا .

وهناك نوع آخر من معاني (القرب) في الرسل ، أشارت إليه سورة ق حيث قالت : ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ ، ذلك أن الرسول الذي يرسله الله إلى قوم لينذرهم ، يكون (منهم) ، أي أحدهم

ومن بينهم ، يعيش تحت سمعهم وأبصارهم منذ صغره ، وليس غريباً عنهم طارئاً عليهم . فهو (قريب) منهم بهذا المعنى أيضاً .

٥ - الحق الخامس : اليوم الآخر

لقد ذكرت سورة ق هذا الركن من أركان الإيمان بتفصيل واف . فبدأت بالرد على من ينكرون إمكان بعث الناس بعد موتهم ، مشيرةً إلى أن هؤلاء المنكرين يتوهمون أن قدرة الله محدودة ، وأنه تعالى يعجز عن إعادة إحياء الناس ، فتضرب لهم مثلاً بما يرونه بأبصارهم في الدنيا من إعادة إحياء الله للأرض بعد موتها بإنزاله للمطر : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ . فتراب الأرض يكون جسماً جامداً ميتاً لا حياة فيه ، ولكن حينما يشاء الله ينزل عليه المطر ، فتفتتح بذور النباتات ، وتمتص عناصر التراب الميتة ، وتحولها بقدرة الله إلى مادة حية ، هي أوراق النبتة وجذوعها وثمرتها ، فجسم النبات الحي أصله هذا التراب الميت . وكذلك يقدر الله عز وجل أن يحيي الناس بعد أن ماتت أجسامهم . وكما استطاع الله أن يحيي الناس حياتهم الدنيوية الأولى ، فإنه أهون عليه أن يُعيد إحياءهم : ﴿ أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ؟! بَلْ هُمْ فِي لُبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ .

وتذكر السورة أولى مراحل الدار الآخرة ، وهو الموت ، فتقول : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ ثم تذكر ثانية

مراحلها فتقول : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴾ . وتذكر السورة أيضاً مشهداً يتضمّن سماع الناس الصيحة ، ثم خروجهم من الأرض ، وكيف يشقونها كما تشق البذرة النابتة التراب بعد تفتّحها : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ . إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ . يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ، ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ .

ثم تذكر السورة كيف يُساق الناس إلى ساحة العرض والحساب ، حيث يُحاكمون ويُحاسبون على أعمالهم الدنيوية محاكمة عادلة لا ظلم فيها : ﴿ وما أنا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ، بل يشهد شهيد على كل عمل من أعمال الإنسان : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ .

وتصوّر السورة مشهداً حياً لجدال يدور يوم الحساب بين اثنين من الكفار ، كانا مترافقين (قرينين) في الدنيا ، فيحاول أحدهما إلقاء عبء كفره على قرينه ، متّهماً إياه بأنه سبب ضلاله ، فيردّ عليه قرينه قائلاً : ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ .

وتذكر السورة أيضاً أحوال المؤمنين يوم القيامة ، مبيّنةً أن مصيرهم الجنة جزاءً لهم على تقواهم وخشيتهم وإنابتهم إلى ربهم ، يجدون في الجنة السلام والخلود وكل ما يشتهون : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . هذا ما توعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ . مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ . ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ . لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ .

واليوم الآخر هو أيضاً ركن (غيبي) الطبيعة ، لم يشاهده عامة البشر ، لأنه لم يحدث بعد .

لكنه (قريب) ، كما تشير إلى ذلك سورة ق حيث تقول : ﴿ واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب ﴾ ، فهو مهما بُعداً لا بد سيأتي وكل آت قريب . وقد قال تعالى : ﴿ إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ﴾ (معارج ٧) . كذلك أكدت سورة ق قرب يوم القيامة بنفي بُعدِه إذ قالت : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ﴾ .

٦ - الحق السادس : القضاء والقدر

إن كل ما ذكرته السورة من أحداث هو من قضاء الله وقدره ، فقد قضى الله تعالى وقدر أن يخلق السماوات والأرض وما بينهما ، وأن يخلق الملائكة والناس . وكتب في كتاب خاص كل ما سيحدث للناس من أحداث في دنياهم وآخرتهم ، لأنه تعالى يعلم كل شيء مما سوف يحدث لكل مخلوق . وهذا الكتاب - الذي هو كتاب القضاء والقدر - قد أشارت إليه السورة بقولها : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ . فهذا الكتاب (الحفيظ) هو اللوح (المحفوظ) الذي كتب الله فيه جميع الأحداث التي تجري على جميع الناس وسائر المخلوقات منذ الأزل وإلى الأبد من أعمار وأرزاق وغيره .

وقد ورد ذكره في عدد من سور القرآن الكريم ، كقوله تعالى :

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾
 (الرعد ٣٩) ، وقوله : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَهِيَ كِتَابٌ مَعْلُومٌ .
 مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلُهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ (الحجر ٥) ، وقوله :
 ﴿ وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابَسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾
 (الأنعام ٥٩) ، وقوله : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ،
 وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (هود ٦) ، وقوله :
 ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
 يَسِيرٌ ﴾ (فاطر ١١) ، وقوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ
 وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ (الحديد ٢٢) .

وهناك إشارة أخرى في سورة ق إلى قضاء الله وقدره ، ذكرها ابن كثير
 رحمه الله في تفسيره للآية : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ
 بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ . هل من محيص ؟ ﴾ ، إذ قال : « هل من
 محيص : أي هل من مفرّ كان لهم من قضاء الله وقدره ؟ » .

وفي القضاء والقدر معنى واضح من معاني (الغيبية) . فما من أحد
 يعلم ما قضى الله وما قدر له أو عليه من الأحداث في مستقبل حياته ،
 فما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت .
 كما أن قضاء الله وقدره (قريب) من كل إنسان ، فإنه يقع على
 الإنسان ويلاسه في كل لحظة من لحظات حياته لا يفارقه أبداً في أحداثه
 اليومية ، ففيه صفة (القرب) .

والقضاء والقدر هو أوسع الحقوق (أركان الإيمان) بعد الحق الأول (الله تعالى) ، فهو يشملها جميعاً ، فإن الملائكة هم من قضاء الله وقدره ، واليوم الآخر هو من قضاء الله وقدره ، وكذلك أرسل الله الرسل وأنزل الكتب بقضائه وقدره . ولا غرابة في سعة هذا الركن من أركان الإيمان وشموله ، فهو في الحقيقة تعبير عن إرادة الله الواسع العظيم ومشيئته التي لا تحدّها حدود المكان ، ولا تقيدها قيود الزمان .

كشف الغيوب

إن جميع (الحقوق) (أي أركان الإيمان) الستة غيبية - كما سبق - لكنها لن تبقى غيبية إلى الأبد ، بل سيُكشَف عنها حجاب الغيب كشفاً تاماً في اليوم الآخر ، ويبدأ ذلك عند حضور الموت للإنسان وهو في النزاع : ﴿ وجاءت سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ ، فإن (الحق) الذي ذكرته الآية إشارة إلى الأمور الغيبية التي كانت محتجبة عن ناظري الإنسان وأذنيه . ففي حالة النزاع يرى الملائكة ويسمعهم وهم ينتزعون روحه : ﴿ إن الذين تَوَفَّاهُم الملائكةُ ظالِمىَ أنفسهم ، قالوا فيمَ كُنتُمْ ؟ قالوا : كُنَّا مُسْتَضعِفِينَ في الأَرْضِ . قالوا : ألم تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسعةً فتهاجروا فيها ؟ ﴾ (النساء ٩٧) ، وقوله تعالى : ﴿ ولو تَرَى إذ يتوفَّى الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوهَهُم وأدبارَهُم ، وذوقوا عذابَ الحريقِ ذلك بما قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وأن الله ليسَ بظلامٍ للعبيد ﴾ (الأنفال ٥١) ، وقوله :

﴿ حتى إذا جاءتهم رُسُلنا يتوَقَّونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا : ضَلُّوا عَنَّا وشهدوا على أَنفُسِهِم أَنهم كانوا كافرين ﴾ (الأعراف ٣٧) .

كما أن المؤمنين عندما يحضرهم الموت يرون الملائكة ويسمعون ترحيبهم بهم وثناءهم عليهم ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ الذين تتوَقَّاهُم الملائكةُ طَيِّبِينَ يقولون : سلامٌ عليكم ادخلوا الجنةَ بما كنتم تعملون ﴾ (النحل ٣٢) .

ويكتمل الكشف عن الحقائق الستة يوم القيامة ، حيث يقف الخلق وجهاً لوجه أمام ربهم . فالكافر يُفاجأ بربه يحاسبه ، وذلك كما في الآية : ﴿ والذين كفروا أعمالُهُم كسرابٍ بَقِيعةٍ يحسبُهُ الظَّمآنُ ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجدهُ شيئاً ووجدَ اللهُ عنده فوفاهُ حسابَهُ والله سريعُ الحساب ﴾ (النور ٣٩) .

كما يجادل الكافرون ربهم ويسمعون تأنيبه الشديد لهم وذلك كما في الآيات : ﴿ ألم تكنُ آياتي تُتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ؟! قالوا ربنا غلبت علينا شِقوتنا وكنا قوماً ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال : احسبوا فيها ولا تكلمون ﴾ (المؤمنون ١٠٨) .

ويشبه ذلك ما ورد في سورة ق حيث قالت : ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلالٍ بعيد . قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدي وما أنا بظلامٍ للبعيد ﴾ .

وأما المؤمنون فيرون ربهم يوم القيامة ويسمعون ترحيبه بهم ويسعدون
برضوانه وتكريمه .

وهكذا يُكشف حجاب الغيب يوم القيامة طبقاً لقول سورة ق :
﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .

الحق والقلب

بيّنت في ما سبق (الحق) ، وهو الحقائق الإيمانية الغيبية الستة
الواجب على كل إنسان أن يؤمن بها ليلبغ رضوان الله وسعادي الدنيا
والآخرة .

والإيمان بالحق موضعه (القلب) ، فهناك تلازم واقتران بين الحق
والقلب .

فما هو هذا (القلب) ياترى ؟

قد يظنّ بعض الناس أن (القلب) في كتاب الله يعني تلك المضغّة
اللحمية العضلية التي تضخ الدم إلى سائر أجزاء الجسم ليمده بما يحتاجه
من غذاء .

غير أن (القلب) لم يرد في القرآن الكريم بهذا المعنى المادي أبداً .
ولأنّما ورد (القلب) فيه بمعنى آخر . فهو يعني جهازاً غيبياً يسمع
ما لا تسمعه الأذنان الماديتان ، ويبصر ما لا تبصره العينان الماديتان . قال

تعالى : ﴿ إِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾
(الحج ٤٦) ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ
قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ
بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ . أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾
(الأعراف ١٧٩) .

والقلب في القرآن هو مستقر الإيمان كما قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ
حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (الحجرات ٨) ، وهو موطن
العواطف من رعب ورحمة وحسرة وألفة ، كما ورد في الآيات التالية :
﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب - وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه
رأفة ورحمة - ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم - لو أنفقت ما في الأرض
جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ﴾ .

والقلب الغيبي هذا قد يمرض دون أن يصيب القلب المادي العضلي
أي مرض ، وذلك كما في الآية : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ
مَرَضًا ﴾ .

هذا (القلب) هو الذي ذكرته سورة ق ، مبيّنة ردود فعله تجاه
الحقائق الإيمانية الستة التي أولها وأعظمها الإيمان بالله تعالى .

إن هذه الحقائق الإيمانية إذا أريد لها أن تدخل إلى القلب ، فإنها
لا تجده فارغاً ، بل تجد فيه مؤثرات أخرى قد تحول بينها وبين دخول
القلب .

وقد أشارت سورة ق إلى أهم هذه المؤثرات المعيقة للإيمان ، وهي :

١ - وساوس النفس الواردة في الآية : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوسُ به نفسه ﴾ . فوساوس النفس التي تنبعث من شهواته المادية لا تنقطع عن قلبه ، ولا تتركه قط ، حتى في نومه ، فهو كثيراً ما يرى هذه الوسواس متجسدةً أمام ناظره بصورة أحلام .

٢ - وساوس خارجية تأتيه من أصدقائه الأدميين أو قرنائه من الجن .
ففي سورة ق نجد الآية : ﴿ قال قرينه رَبَّنَا مَا أَطغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضلالٍ بعيدٍ ﴾ ، وقد قال المفسرون إن كلمة (قرينه) التي في الآية تحتمل معنيين ، هما قرين الإنسان من الجن الذي يوسوس إليه بالكفر والشرك ، أو قرينه من أصدقائه الأدميين الذين يدعونه إلى الكفر .

ردود فعل القلب تجاه الحق :

تبين سورة ق أن للقلب الإنساني موقفين متباينين من الحقائق الإيمانية :

(أولهما) - موقف القلب الحي المنيب ، وذلك حين يكون القلب سليماً خالياً من الأمراض ، فيوازن بين وساوس النفس والقرناء وبين أدلة الحق التي يسمعها من الأنبياء والرسل ، والتي يشاهدها في هذا الكون الواسع وفي جسمه ونفسه ، والتي تدل دلالة يقينية على الله الواحد المهيمن على هذا الكون ، المبدع لما فيه من كائنات يتجلى فيها الجمال والتوازن والحفظ

والتلاؤم ، فيخضع للحق ، ولا يدع الوسوس والشهوات تطغى عليه ،
ويغشاه الخوف والخشية من الله ، ويصبح ذكر الله هو شغله الشاغل ،
فيرجع إليه ويُنيب إليه دائماً ، ويدخل في زمرة (المتقين) و (الأوابين) .
وقد أشارت السورة إلى ذلك بقولها : ﴿ وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمَتَّقِينَ غَيْرَ
بَعِيدٍ ، هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَابٍ حَفِيفٍ . مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ
وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ .

وهذا القلب هو (القلب الحي) الذي أشارت إليه سورة ق بقولها :
﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ، أي
لمن كان له قلب حي يعي ما يسمع .

(وثانيهما) - موقف القلب الميت المريب المشكك : إن هذا القلب
مريض ، فهو لا يُقدِّر الأمور حقَّ قدرها ، ولا يوازن الموازنة الصحيحة
بين وسوس النفس والشيطان وبين أدلة الحق الساطعة ، فيقع في مرض
الريبة والشك ، ويختلط عليه الأمر ، وهذا هو معنى كلمة « مَرِيحٌ » ،
التي تعني ، كما يقول ابن كثير « المختلف ، المضطرب ، الملتبس » عند
تفسيره للآية : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ ﴾ .
وتكون نتيجة هذا الموقف المضطرب المختلط ، التكذيب بالحق كما
تقول الآية السابقة ، وكما تقول الآية : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ...
وَقَوْمُ تَبَعٍ كُلُّ كَذِّبٍ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴾ .

كما تكون نتيجة رسوخ الكفر في هذا القلب الميت المريب أن يتَّصف بالعناد ومحاربة كل من يدعو إلى الخير، والنزوع إلى الاعتداء على الصالحين . وهذا ما تشير إليه سورة ق بقولها : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عِنْدَ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مَرِيبٍ ﴾ .

* * *

وهكذا تتضح لنا وحدة موضوع سورة ق ، وهو الحقائق الإيمانية الستة وتأثيرها في القلب .

فقد عرضت السورة حقائق الإيمان عرضاً وافياً تفصيلياً ، مبيّنة أدلة وجود الله تعالى ، الحق الأعظم ، ومثبتة إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وموضحة أحوال اليوم الآخر وما تنكشف فيه من غيوب ، ومبطلّة شكوك الكافرين في قدرة الله على إحياء الموتى ، ومشيرة إلى سجلّ القضاء والقدر ، ومفصلة المؤثرات على قلب الإنسان ، ومبيّنة كيف تختلف ردود فعل هذا القلب تجاه هذه المؤثرات .

إنها سورة ق سورة (الحق والقلب) ، فطوبى للقلب الحي ، المؤمن بالحق .

سورة يس

﴿يس والقرآن الحكيم ...﴾ (إلى آخر السورة) .

سورة يس .

سبحان الله الحكيم العزيز الرحيم العليم المحيي المميت

يتصدر هذه السورة الكريمة حرفان هما حرف الياء وحرف السين .
ولكي أستعين بهما على اكتشاف موضوع السورة الوحيد الذي تدور حوله
معانيها ، نظرت في أهم الكلمات التي تحوي هذين الحرفين والتي وردت
في السورة .

وجدت الحرفين معاً في كلمة (المستقيم) ، التي هي إحدى كلمتي
عبارة (الصراط المستقيم) الواردة مرتين في السورة .

ووجدت حرف الياء في أسماء الله الحسنى (الحكيم ، العزيز ،
الرحيم ، العليم) وفي الفعل (يُحيي) ، وفي كلمة (الصيحة) .

ووجدت حرف السين في كلمة (سُبْحَانَ) الواردة مرتين في السورة
والتي تعني تنزيه الله عزّ وجلّ عن صفات النقص والعجز . كما وجدت
السين في كلمتي (سلام وحسرة) .

وبالتأمل في معاني السورة ، وبالاستعانة بمعاني الكلمات المذكورة ،
وجدت المعنى العام الذي تدور حوله السورة يتلخص فيما يلي :

هناك (صراط مستقيم) وضعه الله تعالى في كتابه للبشر ، لكي

يسلكوه فيصلوا إلى رضوان الله وجنته . ومن انحرف عن هذا الصراط المستقيم دخل في غضب الله وعذابه يوم القيامة .

إن أساس الصراط المستقيم هو عبادة الله وحده . وهو يتألف من قسمين : (١) قسم إيماني (٢) وقسم عملي :

فأما القسم الإيماني فيتضمّن الإيمان بالله تعالى ، إلهاً واحداً متصفاً بالكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله .

وأما القسم العملي ، فيتضمّن الأمور العملية التي يجب على المؤمن القيام بها كالصلاة والزكاة والصيام والجهاد والصدق في القول والوعد وغيرها .

وقد فصل القرآن (الحكيم) هذين القسمين من (الصراط المستقيم) تفصيلاً تاماً ، وبينها رسول الله ﷺ في سنته أكمل بيان . وتتناول سورة يس القسم الإيماني من (الصراط المستقيم) ، فترد على تصورات المشركين الخاطئة لصفات الله تعالى . فثبتت صفات الكمال له تعالى وهي أنه (حكيم ، عزيز ، رحيم ، عليم ، محيي مميت) ، وتؤكد على وجه الخصوص قدرته تعالى على (الإحياء) ببعث الناس يوم القيامة ، وهي الصفة التي أنكرها المشركون إنكاراً تاماً .

والسورة تنفي نقائص هذه الصفات الكاملة عن الله تعالى وتنزهه عنها ، وهذا التنزيه تعبر عنه كلمة (سبحان) الواردة مرتين في السورة

والتي وردت في خاتمة آيات السورة ، وهي : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

فالسورة تلفت النظر إلى (الصراط المستقيم) مبيّنة أنه ينبغي على سالكه أن يحمده الله وأن يسبّحه ، وحمد الله يكون بإثبات صفات الكمال له عز وجل وهي حكمته وعزته ورحمته وعلمه وقدرته على الإحياء والإماتة ، وتسيّحه يكون بتنزيهه عن النقص والعجز .

الصراط المستقيم :

ذكرت السورة (الصراط المستقيم) في موطنين منها ، أحدهما في مطلعها فقالت : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ، وثانيهما في الآية : ﴿ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ التي تشير إلى أن عبادة الله وحده هي لبّ الصراط المستقيم وأساسه ، فقد سبق هذه الآية قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ .

ولم تتعرض السورة إلى القسم العملي من الصراط المستقيم سوى في الآية : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ ، التي تحث على الصدقة وإطعام الفقراء . فالسورة إذن تقتصر على القسم الإيماني من الصراط المستقيم بإثبات صفات كماله تعالى وتنزيهه عن النقص .

تنزيه القرآن (الحكيم) عن العبث والهوى :

إن أول ما نقرأ من السورة هو : ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ . فالقرآن قول (حكيم) لأن قائله جل وعلا يتّصف بالحكمة ، وهي وضع الشيء المناسب في المكان المناسب وفي الزمان المناسب ، بحيث يؤدي ذلك إلى الخير والحق والعدل والصلاح .

وقد زعم المشركون أن الرسول شاعر ، وأن هذا القرآن الذي يتلوه عليهم إنما هو (شعر) ، بدليل الآية التالية الواردة في السورة : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ .

وشتان بين القرآن (الحكيم) والشعر الجاهلي الذي شبهوه به .

فأما أشعار الجاهلية العابثة ، فلم تكن سوى غزل جامد شكلي خالٍ من العاطفة الحقيقية ، يفتتح به الشاعر قصيدته افتتاحاً « روتينياً » ، ليبدأ بعده بالهجاء أو المدح أو الفخر المبني على عواطف قبلية عنصرية ، ولسان حاله يقول :

وما أنا إلا من غزِيَّةٍ إن غَوَتْ

غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةٌ أَرشُدِ

وغزِيَّةٌ هو اسم قبيلة قائل هذا البيت الذي يبين أن الشاعر يُعطل فكره وعقله ويتبع ما ترسمه له قبيلته اتباعاً أعمى ، فيتبع طريق الغي والضلال إن رأى قبيلته تتبعه ، ويتبع سبيل الرشاد إن قبيلته تتبعه .

فهل هذا السلوك سلوك حكيم؟

ويغلب على الشعر الجاهلي الهجاء والفخر ، فترى شاعرهم يهجو القبيلة المعادية لقبيلته ، ويفخر بقبيلته ويمدح زعماءها ، صادراً في ذلك عن الهوى والغرور ، فلا حكمة ولا علم في معظم أقواله ، وإنما استشارة للعداوات في نفوس القبائل ، وهدم للسلام والإصلاح فيما بينها .
وأما القرآن (الحكيم) فيحيي القلوب بربطها ربطاً محكماً بخالق الأرض والسموات ، وبحضها على التقوى والتعاون والتواضع لله تعالى ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ . لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ، فهو بحكمته يحيي القلوب المستعدة للإحياء سالكاً بها صراط الخير والصلاح والحق .
فتعالى الله منزل القرآن الحكيم سبحانه .

تنزيه الله (العزيز) ، سبحانه :

إنَّ الله تعالى (عزيز) ، أي لا يستطيع أحد أن ينال منه ، وهو الغالب القوي الذي لا يقهره أحد ، والذي يقهر وبذل من يحق عليه القهر والذل ، لا يُعجزه عن ذلك شيء .

ولقد استحق الكفار هذا الإذلال وهذا القهر في الدنيا والآخرة ، ذلك لأنهم انحرفوا عن الصراط المستقيم فعبدوا الشيطان : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، كما أشركوا به

أصنامهم : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهةً لعلَّهم يُنصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جندٌ محضرون ﴾ ، معتقدين أن آلهتهم الباطلة تستطيع نصرهم متحديةً إرادة الله تعالى ، وأن شفاعة هذه الآلهة تضطره - سبحانه وتعالى - إلى التغاضي عن عصيانهم .

وقد أشارت السورة إلى عزة الله (العزيز) وقهره لأعدائه حين بينت إيقاعه العقاب العاجل الصارم بالعصاة المصرين على عصيانهم في الدنيا . فقد ذكرت عقاب الكفار الذين كذبوا ثلاثة من رسل الله إذ أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فأهلكهم بالصيحة : ﴿ إن كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون ﴾ .

كما ذكرت أنه تعالى قادر يوم القيامة على قهر جميع مخلوقاته وإهلاكهم بالصيحة ، أي بالنفخة الأولى في الصور ، فقالت : ﴿ ما ينظرون إلا صيحةً واحدةً تأخذهم وهم يخصمون ، فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ .

كما تذكر السورة قدرة الله (العزيز) على قهر المشركين بشلِّ حواسهم وأعضاء حركتهم فتقول : ﴿ ولَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

وتؤكد السورة أيضاً قدرة الله (العزيز) على شلِّ قواهم العقلية بإيصالهم إلى أرذل العمر فتقول : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ، أَفَلَا

يَعْقِلُونَ؟! ﴿١﴾ .

فالمشركون أضعف من أن يقفوا أمام قهر الله وعزته ، وآلهتهم الباطلة أضعف من أن تنال من عزة الله فتضطره إلى قبول شفاعتها لمن يعبدونها من دونه : ﴿ أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ ﴾ .

فتبارك الله العزيز سبحانه .

تنزيه الله (العليم) سبحانه :

إن الله تعالى عليم ، يعلم كل شيء ، ويعلم ما يُسرُّه الإنسان في نفسه وما يعلنه . غير أن المشركين يظنون أن الله لا يعلم أسرارهم التي يخفونها في أنفسهم ، وقد نزهت السورة الله تعالى عن هذا الظن ، فقالت : ﴿ فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ ، مؤكدة علم الله الذي وسع كل شيء في السماوات والأرض ، والذي على أساسه خلق المخلوقات ، وأجرى الشمس والقمر وسائر الأجرام السماوية ، بحيث تتناسق حركاتها تناسقاً بديعاً ، وتتنظم مواعيدها انتظاماً دقيقاً ، فلا تتصادم ، بل يجري كل منها في فلك خاص به ، كما شاء له علم الله وحكمته . وفي ذلك تقول السورة : ﴿ والشمسُ تجري مُسْتَقَرًّا لها ذلك تَقْدِيرُ العزيزِ العليم . والقمرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حتى عادَ كالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لا الشمسُ يُبْغِي له أن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سابقُ النَّهَارِ ، وكل في فلكٍ

يَسْبِحُونَ ﴿١٠﴾ .

وتقول السورة أيضاً : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ .

فتعالى الله (العليم) ، سبحانه .

تنزيه الله (الرحيم) ، سبحانه :

إن الله تعالى (رحيم) كريم ، يتفضل على خلقه برحمته ، ابتداءً منه ، فيُرسل إليهم الرسل لينقذوهم من الضلال الذي يؤدي بهم إلى الهلاك والشقاء .

وقد أنكر المشركون رحمة الله (الرحيم) حين أنكروا أنه يرسل رسله إلى الناس . وقد أوردت السورة إنكارهم هذا فقالت : ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مِثْلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ، فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ . قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ .

وإرسال الرسل وإنزال الكتب هما رحمة من الله بخلقه ، فإن إنذاره للناس بالرسول والكتب يقي من يستجيب لهما من عذاب الآخرة الشديد : ﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ .

وتلفت السورة نظر هؤلاء المشركين المتشككين في رحمة الله (الرحيم)

إلى ما يحيط بهم من عناية إلهية فائقة ، تدلهم دلالة قاطعة على رحمته تعالى بهم . فإنه تعالى رتب لهم من الأمور ما يضمن لهم الرزق الوافر وما يطعمهم من جوع : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ .

كما يذكرهم الله تعالى في السورة برحمته بهم حين تضطرب بهم أمواج البحر وهم في السفن ، وقد أطبق عليهم الموت أنيابه ، فيضرعون إلى الله وحده ، داعين أن ينقذهم ، فيستجيب لهم بمحض رحمته وينقذهم : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ . وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ . إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ .

ويذكرهم الله (الرحيم) بما يستوجب رحمته لهم ، وهو التقوى ، فيقول : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

وتحتم سورة (يس) على الرحمة بالفقراء ، لكنهم يرفضون ذلك ، لخلو قلوبهم من الرحمة ، متذرعين بأن الله جعل هؤلاء القوم فقراء ، لأنه يعلم أنهم يستحقون الفقر ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ، قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ؟! إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

فاعجب من هؤلاء الكفرة الذين يشككون في رحمة الله ، وقد خلت قلوبهم من كل رحمة .

فتبارك الله الرحمن الرحيم ، سبحانه .

العلاقة بين (الحكيم) و (العزيز الرحيم) :

إن (الحكيم) هو الذي يضع الأشياء في مواضعها التي تناسبها ، كما سبق أن بينت . لذلك نجد ترابطاً وثيقاً بين معنى اسمه تعالى (الحكيم) واسميه الكريمين (العزيز والرحيم) . فإن الله تعالى يتجلى على الناس بالعزة والقهر عندما يكون ذلك هو الأنسب والأحق ، كما يتجلى عليهم أحياناً بالرحمة عندما تكون الرحمة هي الأنسب والأحق .

فمن الأنسب والأحق مجازاة المسيء بالعقاب ومجازاة المحسن بالإكرام والإنعام . وهو ما بينته السورة إذ قالت : ﴿ فاليوم لا تُظلم نفس شيئاً ولا تُجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ . وقالت عن مجازاة المحسنين بما يستحقون : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغلٍ فاكهون . هم وأزواجهم في ظلالٍ على الأرائك متكئون . لهم فيها فاكهة وهم ما يدعون . سلامٌ قولاً من رب رحيم ﴾ .

وقالت عن مجازاة المسيئين بما يستحقون : ﴿ هذه جهنم التي كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ .

أي أن الله تعالى عندما يتجلى على المؤمنين باسمه (الرحيم)

فيدخلهم الجنة ، ويتجلى على الكافرين باسمه (العزيز) فيدخلهم النار ، فإنه يكون في نفس الوقت متجلياً عليهما معاً باسمه (الحكيم) .
فسبحان الحكيم العزيز الرحيم .

إثبات قدرة الله على (الإحياء) :

إن قدرة الله على إحياء الموتى من أبرز المعاني التي عاجلتها السورة في معظم آياتها . فالسورة تردّ على إنكار المشركين لقدرة الله على الخلق و (الإحياء) ، مؤكدةً أن الله سوف يحيي الموتى لكي يجازيهم بما عملوه في حياتهم الدنيوية ، وأنه من أجل ذلك يسجل أعمالهم جميعها في كتاب خاصّ ليكون شاهداً عدلاً عليهم .

وأعرض فيما يلي آيات السورة التي تعالج قدرة الله على إحياء الناس بعد موتهم :

(١) - ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ، وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ .

(٢) - ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ .

إن هذه الآية تقرر أن الرجل المؤمن الذي قتله أصحاب القرية الظالمة لأنه ناصرَ رُسلَ الله ، قد أدخله الله الجنة وغفر له ، فهو حيٌّ يرزق ، قد أحياه الله بعد موته .

(٣) - ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ . وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ .

تفيد هذه الآية أن جميع الأمم السابقة قد ماتت وأنها لن ترجع إلى الحياة الدنيا أبداً ، لكنها سترجع إلى الحياة الآخرة بعد أن يُعيد الله إحياءها ليجازيها بأعمالها .

(٤) - تتجلى قدرة الله على إحياء الموتى في الآيات : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ - الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ . وهذا الأمر ثابت علمياً وحسبياً . فإن التراب الميت يصبح جسماً حياً بمجرد أن تمتصّ النبتة عناصر التراب الميتة من أكسجين وكربون وكالسيوم . الخ . وتكوّن النبتة بمساعدة عملية التركيب الضوئي (الكلوروفيلي) خلايا حية جديدة كثيرة من هذه العناصر ، تنمو بها الحبة فتصبح شجرة باسقة لا تُحصى خلاياها الحية بعد أن كان عدد خلاياها ضئيلاً نسبياً .

وكذلك الدجاجة : أصلها بيضة صغيرة . فمن أين تضخم جسمها الحي وتضاعفت خلاياها الحية ؟ لقد أتت الزيادة من تناولها العلف (الميت) الذي أصبح خلايا (حية) بقدرة الله محيي الموتى .

(٥) - دلالة الشمس والقمر على بعث الموتى ! : من روائع الأمثلة (الآيات) التي أوردتها السورة للدلالة على قدرة الله على إحياء الموتى وبعثهم قولها : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلُخُ مِنْهُ النَّهَارَ إِذَا هُمْ مَظْلَمُونَ .

والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴿١٠﴾ ، فإن قدرة الله على الإحياء تتجلى في الشمس التي تبدأ في الشروق صباحاً - فتكون في طفولتها ؛ ثم يشتد سطوعها وحرارتها ظهراً - فتكون في أوج شبابها ؛ ثم تأخذ في الضعف والانحطاط حتى تصفر - فتكون في شيخوختها .

ثم تغيب وراء الأفق كما يغيب الميت في بطن التراب .

لكن الشمس نفسها تعود فتبعث من جديد في صباح اليوم التالي !

إن الشمس مثل حي واضح نراه بأبصارنا كل يوم ، يدل على قدرة الله على بعث الناس بعد موتهم . فهي تموت ثم تحيا كل ٢٤ ساعة .

ومثل ذلك الفصول الأربعة التي تنتج عن حركة الأرض حول الشمس - وهي الربيع والصيف والخريف والشتاء - إذ يتعرض كل منها إلى ما يشبه الطفولة والشباب والشيخوخة ثم يموت ليعث من جديد في السنة التالية

وتتجلى قدرة الله على الإحياء والبعث في (القمر) أيضاً : ﴿١١﴾ والقمر قد رزناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . ﴿١٢﴾ فهو في أول الشهر يكون هلالاً نحيلاً ، وكأنه الطفل . ثم ينمو كلما تدرج في منازلته حتى يصبح بدرأ في منتصف الشهر ، وكأنه الشاب في عنفوانه . ثم يأخذ في التناقص

والتضاؤل حتى يتلاشى في آخر الشهر ، وكأنه شيخ هرم قد مات .
لكن القمر نفسه يبعث بعثاً جديداً في الشهر التالي
إنه مشهد واقعي يتكرر دائماً ، يشهد بقدرة الله على إعادة الإحياء .
إن هذا الفهم الجديد لهذه الآيات يبيّن انسجام معاني السورة
وارتباطها بموضوع السورة الواحد .

(٦) - دلالة السفن (الفلك المشحون) على البعث :

إن السفن (الفلك المشحون) تمثل أيضاً البعث بعد الموت ، فهي
تغيب بمن فيها من الناس في البحر - تغيب عن أهل اليابسة وكأنها
ماتت ، وقد قالوا قديماً : (إن المسافر في البحر مفقود ، والعائد منه
مولود) .

وعندما يعود ركبها إلى البر ، فكأنهم وُلدوا من جديد ، أي كأنهم
بُعِثوا : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . . . وَإِنْ نَشَأْ
نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ .

(٧) - مشهد مؤثر من مشاهد البعث :

تعرض سورة (يس) أيضاً مشهداً مؤثراً من مشاهد البعث ، يبدأ
بالنفخ في الصور ، وهو نفخ مروع يبعث الأموات من قبورهم ، وبعد أن
يدرك الكفار ما حدث ، ويوقنون أنهم قد بعثوا بعد موتهم ، وأنهم لا بدّ

أن يواجهوا حساباً عسيراً وعيشاً تعيساً ، يصرخون فزعين : ﴿ يَاوَيْلَنَا مَنْ
بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا؟! ۞ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ! ۞

فيا لهول المفاجأة ، وبالسوء المصير

ثم يقوم الحساب الحق : ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تُجزون
إلا ما كنتم تعملون ۞ .

ويظهر في المشهد أصحاب الجنة : ﴿ هم وأزواجهم في ظلالٍ على
الأرائك متكئون . لهم فيها فاكهةٌ ولهم ما يدعون . سلامٌ قولاً من ربِّ
رحيم ۞ .

وفي مشهدٍ آخر يظهر المجرمون أذلاء ، لا يسمعون سوى عبارات
التقريع والتوبيخ : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه
لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم
جبلاً كثيراً فلم تكونوا تعقلون؟! ۞ .

ومن مشاهد إذلالهم شلّ ألسنتهم فلا يتكلمون ، وجعل أيديهم
وأرجلهم تتكلم شاهدةً عليهم بما اقترفوا من جرائم : ﴿ اليوم نختم على
أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ۞ .

(٨) - يحيى العظام وهي رميم : نُحْتَم السورة بالرد على المشرك

المنكر للبعث الذي جاء إلى رسول الله ﷺ وفي يده قطعة من العظم وهو
يفتّها ويذروها في الهواء ، وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث

هذا؟! فقال ﷺ : « نعم ، يُميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار » ونزلت في ذلك الآيات الكريمة : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ؟ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وكيف لا يستطيع الله إعادة خلق الإنسان بعد أن خلقه أول مرة ؟ أليست إعادة الخلق أهون عليه من الخلق الأول ؟ وكيف لا يستطيع من خلق السماوات والأرض ، بما فيها من أجرام هائلة ، ذات طاقات حرارية وضوئية لا تحصر ، ونباتات وحيوانات لا تُعدّ ، كيف لا يستطيع أن يُعيد خلق إنسان؟! ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ .

(٩) - القلب الحي :

إن سورة (يس) تعني بقدرة الله على إحياء الموتى عناية شديدة - كما تبين سابقاً - غير أنها تلفت النظر إلى (حياة) ذات بعدٍ آخر خطير ، يتجاوز الحياة المادية ويفوقها قدراً ومقاماً ، ألا وهو الحياة (الروحية) أو (حياة القلب) . ويتبين ذلك في الآية : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ . لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . فالمقصود هنا (بعث) من نوع آخر - بعثٌ روحي ، أي أن القلوب الميتة يمكنها أن تُصبح حية إن استجاب أصحابها لدعوة القرآن الكريم ، واتعظوا بما فيه من الذكر

الحكيم . وعندئذٍ تغشى قلوبهم الخشية من الله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ . والقلب الخاشع الذي يخشى الله هو القلب (الحي) .

وأما أصحاب القلوب (الميتة) ، فإنهم عُمي ، لأن البصر هو أهم حواس الكائنات الحية الراقية ، وإذا مات الحي فقد بصره ، وأصبح لا يميّز طريقه ، وضلّ عن طريق الحق ، وأعرض عن دعوة الله ، مما يزيدة عمى وظلاماً ، وكأنّ سدوداً عالية تحول بينه وبين رؤية الحقائق : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

فتعالى الله المحيي المميت .

* * * *

تلك هي سورة (يس) ذات الموضوع الواحد الذي تتجمع فيه معاني أهم كلمات السورة التي تحوي حرفي الياء والسين .

فالسورة تعلن وجود (الصراط المستقيم) ، مبشرة من يتبعونه بالحياة : ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ ، وبالسلام : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ . ومنذرة المنحرفين عن الصراط المستقيم بالصيحة : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ ﴾ ، ثم بالحسرة : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ .

والسورة سورة إثبات صفات الله الحسنى (الحكيم ، العزيز ،
الرحيم ، العليم ، القدير المحيي المميت) ، وسورة نفي العجز عنه
تعالى وتنزيهه عما يصفه به المشركون وما يتوهمونه من نقائص .
إنها سورة (التسبيح) .

فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

المحتوى

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
١١	سورة القلم
١٣	سورة القلم .. وموضوعها الواحد : مَنْ مَنَعَ نعمة الله مُنِعَ منها
٢٧	سورة ص
٢٩	سورة ص .. سورة الخصام والصراط
٧٧	سورة ق
٧٩	سورة ق .. سورة الحق والقلب
١٠٥	سورة يس
١٠٧	سورة يس .. سبحان الله الحكيم العزيز الرحيم .. العليم المحيي
١٢٥	الميت الفهرس



HD

هذا الكتاب

- يتضمن هذا الكتاب كشوفاً جديدة في السور القرآنية الأربع (القلم ، ص ، ق ، يس) .
- لكل سورة موضوع واحد لا تخرج عنه .
- لكل سورة هندسة خاصة بها .
- العلاقة بين الأحرف (ن ، ص ، ق ، يس) ومعاني السورة .
- سورة القلم : النعمة والمنع .
- سورة ص : الخصام والصراط .
- سورة ق : الحق والقلب .
- سورة يس : الإحياء والتسبيح .

الناشر



دار عمارة للنشر والتوزيع

عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراه - عمارة الحجازي
 نفاكس ٤٦٥٢٤٢٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تم تحميل هذه المادة من:

مكتبة المهتدين الاسلامية لمقارنة الاديان

<http://kotob.has.it>

<http://www.al-maktabeh.com>